

الفصل الأول

الافتراء في شعر العباسي

الدولة العباسية ... فاتنة الدراسيين والباحثين - فاتنة المبدعين منها
جماع ما عرف التاريخ البشرى من تناقضات الفكر الانساني وثورات النفس
الإنسانية.

كان أبو عبد الله السفاح بداية هذه الدولة عام ١٣٢ هـ ، وكان
بمثابة النبوءة لما ستكون عليه الدولة من اضطراب وتناقض ، فبينما -، وعدت
الخلافة العباسية بابتهاج نهج الرسول والخلافه الشريفة في الحكم ، تخلى عن
ذلك يوم توليه الخلافة حين " أمر بنيش قبور بني أمية بدمشق " (١)

ولما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة سار على ذات الدرب ، حيث
أمر بقتل أبي مسلم الخراساني المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، واحتاج إلى
أن يقتل " خلقا حتى استقام ملكه ... وهو الذي ضرب أبا حنيفة على القضاء ،
ثم سجنه فمات بعد أيام ، وقيل قتله بالسم لكونه لفتى بالخروج عليه " (٢) كذلك
اقترن نكر الخليفة القاهر بالله - اقترن - بالطيش وسفك الدماء .

وكان من المألوف في هذه الأونة أن يتربص العباسيون بكل من لا
يشايخ خلافتهم من يعطى ولاءه للأمويين ن فتحرسوا بالشيعية والخوارج
والطويين ومثل بهم ، كما نكل بالطالبيين في عهد المنصور حتى ارتاع الخليفة
المهدي عند تولية الحكم وتفقده لقصره ، حين فوجيء بجثتهم مكدسة في قبو
مغلق. (٣)

وقد انت هذه الحال إلى مزيد من الاضطراب في المجتمع العباسي ،
وساعدت على التكاثر بكثير من الأبرياء ، فقد كان يكفي لمن يرغب في الانتقام
من شخص ما أن يشكك في ولاءه للعباسيين ، مستغلا ما يمثله هذا التشكيك ،
كما فعلت حاضنة جعفر بن المنصور بالفضل بن عمران كاتب جعفر (٤)

وكما اعتمدت الخلافة العباسية على أسلوب القمع وسفك الدماء ،
اعتمدت أيضا على استبدادية الحكم، أو السلطة المطلقة للخليفة في تلك السلطة
التي يحكمها في الغالب - المزاج الشخصي والأهواء ، المتقلبة ، حيث يولي

(١) أبو العباس أحمد بن يوسف الفرمانى . أخبار الدول وأثار الأول ١٢٨٢ هـ / ص ١٤٦ .

(٢) محمد بن جرير الطبري . تاريخ الملوك والرسول ، المطبعة الحسينية بمصر . للطبعة
الأولى للمجلد الثالث / ص ٤٤٩ بتصرف .

(٣) للمصدر السابق / ص ٤٤٩ ..

(٤) تاريخ الملوك والرسول . ص ٤٣٩ / ٤٤٠ / ٤٤١ / للمجلد الثالث / بتصرف .

الخليفة "الولاة والقضاة والوزراء والقواد وأصحاب الشرطة المحتسبين الذين يراقبون الأسواق ، ويعزلهم جميعاً حسب مشيئته وهواه ، وكان يختار الوالي غالباً من اهل بيته ، أو من اكفاء حاشيته، وخاصة الأعاجم ، وكذلك كان يختار قواده".^(١) ويمتلىء تاريخ الطبرى بأحداث العزل والتولية السريعة ، حتى أننا نرى أسماء بعينها تعزل وتولى أكثر من مرة في سنة واحدة^(٢) مما يؤكد وجود اضطراب في السياسة الداخلية للدولة .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد - بل لقد غص المجتمع العباسي بالفتن الداخلية والثورات المختلفة ، التي قام بعضها بوازع من العصبية كتلك التي قامت في الشام عام ١٧٦ هـ حيث " قتل من النزارية واليمانية على العصبية من بعضهم لبعض بشر كثير " ^(٣) وكانت ثورة الرواندية على ابي جعفر المنصور مثالا للثورات المتطرفة المرتكزة على معتقدات غريبة عن الاسلام .

وقد نالت بعض هذه الثورات من هيبة الخليفة وصورته ، فقد قتل المسترشد بالله جماعة من اللبانية، كما بلغت قوة القرامطة حد أن استبقى زعيمهم أبو ظاهر القرمطي - لسبقي - الحجر الأسود في حوزته عشرين عاماً.^(٤)

وكان بيت الخلافة نموذجاً للاضطراب الصراع المسيطرين على المجتمع العباسي كله ، فقد تقابل ذور الارحام سعياً وراء الحكم ، وقيل أن الخيزران كانت وراء قتل ابنها الخليفة الهادي عام ١٧٠ هـ لاستنثاره دونها بالخلافة ، كما اشتهر أمر قتل المأمون أخيه الأمين عام ١٩٨ هـ ، وتواطؤ الخليفة المنتصر بالله مع الترك لقتل ابيه المتوكل ، كذلك حفظ لنا التاريخ حادث قتل الخليفة المستعين بالله على يد الخليفة المعتز ، وقتل معز الدولة الخليفة للمستكفي .

بالإضافة إلى كل هذا للجحيم استطاعت الدولة العباسية أن تحتمل وجود العنصر الأجنبي فيها مزاحماً للعربي ، وقد تدخل هذا العنصر في شئوننا ، وسيطر على الأمور فيها ، مستغلاً كل الاضطرابات التي وصفناها في عهد

(١) د. شوقي ضيف للحصر العباسي الأول . دار المعارف . ١٩٦٩م ط ٢/ص ٢١ .

(٢) تاريخ الملوك والرسل . مع ٣/ص ١٤١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ .

(٣) للسابق . مع ٣/ص ١٣٩ .

(٤) لخبر الدول . ص ١٦٣ .

المأمون نجد أسرة بني سهل الفارسية تنقلد منصب الوزارة وتمكن بدورها للتقاليد الفارسية في الحكم^(١) وكان الواثق بالله أول من استخلف اثناس التركي ، وكانت الخلافة في أيامه تدور على اتياع ، وعلى كاتبه سليمان بن وهب ، وعلى اثناس وكاتبه أحمد بن الخصب^(٢) أما الخليفة المعتصم فقد عهد للترك بأمر الدولة عم ٢٢٥هـ .

وكان عهد للقائم بأمر الله ابتداء عند السلاجقة وانتهاء عهد بني بويه ، وقد تمكن الفرنج من الشام عام ٥١٨هـ ، وانتهت الدولة العباسية على يد التتار عام ٦٥٩هـ .

وهذه الخاتمة البشعة لا تبدو غريبة على دولة تفككت كل أمورها ، دولة يستطيع فيها للوالي أن يستأثر بمصره ويخير هذا المصر^(٣) ولعل وصف القرماني للدولة العباسية أن يكون جامعا ، فهو يصفها بأنه فيها " افتترقت كلمة الاسلام ، وسقط لسم العرب من الديوان ودخل الأتراك والسيليم في الديوان ، وصارت لهم دولة عظيمة ، وانقسمت ممالك الأرض عدة أقسام ، وصار لكل قطر قائم يأخذ للناس بالعسف ويملكهم بالقهر " .^(٤)

وإن من يبحث في الحياة الشخصية للخلفاء ، يجد في سيرتهم ما يبرر تفكك المجتمع العباسي واضطرابه ، فقد كان الخلفاء - الا القليل منهم - تتناهبهم الشهوات والملذات ، وكانوا في عماء عما يعانيه رعاياهم من شظف العيش ، فحين تولى الأمين الخلافة " فرق الأموال ، وانعكف على الشراب ، ومفادمة الفساق ، وارسل إلى البلاد فجمع المغاني ، وقسم الأموال في الحظيات والنساء وشترى غريبة المغنية بمائه ألف دينار ، واخذ جارية ابن عمه بعشرين ألف دينار " .^(٥)

أما المتوكل ، فقد ذكر المسعودي أنه كان له أربعة آلاف سرية ن وقد وطى الجميع " .^(٦) وقد فصل الاصفهاني^(١) حديثا طويلا عن إسراف الرشيد

(١) د. مؤتقى ضيف . العصر للعباسي الأول ص ٢٤ .
(٢) أبو فرج الاصفهاني . الأغاني . للجزء العشرين تحقيق على النجدي ناصف شرف محمد أبو الفضل إبراهيم الهيئة المصرية للعلماء للكتاب / ص ٢٦٩ .
(٣) تاريخ الدول واثار الأول . ص ١٦٨ للجزء الثاني
(٤) للسابق ص ١٤٦ . للجزء الثاني
(٥) السابق ج ٢ ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ بتصرف
(٦) السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٩

ومجونه مما هو مشتهر ومعروف .

وقد بلغ استهتار الخلفاء بمال المسلمين إلى حد أن كان هذا المال رهين الغضب والطرب اللذين يتحكمان في مزاج هؤلاء الخلفاء ، فقد كان يكفى الخليفة أن يستمع إلى قصيدة أحدهم وينال رضاه الشخصي لتقطع صاحبها ولاية بأكملها ، وكان الوزراء ينتهجون ذات المنهج . فقد أقطع لوزير النضل بن سهل مسلم بن الوليد البريد ببرجان (٢)

وهذا السلوك لا يغبط له إلا أصحاب المصالح الخاصة وأصحاب المطامع وعلى رأسهم حاشية الخليفة ، وباعتداع هؤلاء أن يعطوا أي اتخاذ للإصلاح ، وأي نية للتعبير ، ولذلك لاقى الخليفة المهتدي بالله كل العنت عندما حاول أن يعيد سيرة أمير المؤمنين عمر بن العزيز ، وحوارب من الأمراء أنفسهم الذين يتهددهم مثل هذا المسلك الصحيح ويغلق عليهم أبواب الرغد ، وقد قتل المهتدي بعد خلافته بخمسة عشر يوماً فقط (٣) .

كذلك كان الشعراء والمترجمون والأطباء والعلماء يفيدون من هذا البذخ كثيراً (٤) لكنهم في الغالب تابعون لتقلب أهواء الخليفة ومن معه متعرضين لكل مفاجأة منهم .

وفى مقابل كل هؤلاء كان عامة الناس وأوساطهم ممن لم تكن لهم حظوة أو وساطة أو موهبة بارزة " من التجار وغيرهم تتقلب بين الشقاء والنعيم " (٥)

وقد ألب هذا الوضع الاجتماعي الناس على حكامهم ، وكان في رأى كثير من الباحثين " السبب الحقيقي في كثرة الثورات على العباسيين - وخاصة في إيران ، وإيضاً لعله للسبب الحقيقي في تعلق للناس المهدي المنظر من أبناء على الذي ينشر العدل الاجتماعي في الأرض ، مما دأب لكثرة الجمعيات السرية

(١) الأغاني / للجزء التاسع عشر . تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرابوي إشراف محمد أبو الفضل إبراهيم . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢ م ، ص ٢٨٢ .

(٢) الأغاني الجزء التاسع عشر . ص ٢٧٩

(٣) تاريخ الدول وأثار الأول ص ١٦٣ .

(٤) د. شوقي ضيف القصر العباسي الأول ص ٤٨ .

(٥) السابق ص ٤٥

، واعتناق الناس لعقيدة التشيع على اختلاف فرقها. (١)

وكان وجود العنصر الأجنبي - الذي سلفت الإشارة إليه - من عوامل استقرار المجتمع العباسي في المجون والفرس ، - أو على الأقل من عوامل غلبة هذه الحياة عليه - فقد " ورث المجتمع العباسي كل ما كان في المجتمع الساساني الفارسي من أدوات لهو ومجون ، وساعد على ذلك ما دفعت إليه الثورة العباسية من حرية مسرفة ، فإذا الفرس المنتصرون يمعنون في مجونهم ، ويمعن الناس معهم ". (٢) وقد أدى هذا إلى ظهور قضايا جديدة على المجتمع العربي كقضية الزندقة التي زادت حداثتها في عهد الخليفة المهدي ، حتى لقد جد في طلبهم ، واعتبرهم شغله الشاغل (٣) وكان الاتهام بالزندقة مجالاً رحباً يستطيع الحاكم من خلاله التخلص ممن لا يرغب فيهم ، كما كانت فرصة سانحة بوقع فيها للناس بعضهم ببعض ويشون بمن يناقشهم أو يعاندهم.

كانت هذه الحياة المطرية وهذا الوجه الماجن فيها دافعاً لفريق كبير من الناس كي يتجه إلى حياة التمسك والزهد ، فامتلاً المجتمع العباسي - على اختلاف مراحلها - بأسماء الزاهدين ومأثرهم " وفي البيان والتبيين ، وعيون الاخبار ، والعقد الفريد منشورات رائعة من أقوال مشاهير الزهاد أمثال سفيان الثوري المتوفى ١٦١ هـ - وداود الطائي المتوفى ١٦٥ هـ ، وعبد الله بن المبارك المتوفى ١٨١ هـ ، والفضل بن عياض للمتوفى ١٨٧ هـ ، وسفيان بن عيينه للمتوفى ١٩٨ هـ ، ومن مشهورى هؤلاء النسائك عبد الواحد بن زيد المتوفى ١٧٧ هـ ، وهو الذي أنشأ أول رباط - أو أول صومعة للناسكين في عبادات بالقرب من الكوفة. (٤)

وتعددت طرائق العبادة الصوفية ، واشتهرت - وعلت أسماء شيوخها كإبراهيم البلخي ، ورابعة المدوية ، ومعروف الكرخي وبشر بن الحارث ، وغيرهم (٥) .

وان اختلاط الحضارات الأجنبية بالحضارة العربية في المجتمع

(١) العصر العباسي الأول ص ٥١ .

(٢) السابق ص ٦٥ .

(٣) الطبري تاريخ الرمل والملوك . المجلد الثالث / ص ٥٢٩ ، ٥٣٠ .

(٤) العصر العباسي الأول . ص ٨٥ يتصرف .

(٥) السابق ص ٨٥ ، ٨٦ ، يتصرف .

العباسي و انفتاح الحياة العباسية جلب كثيرا من 'الاجبايات' مثلما أدى إلى كثير من السلبيات ن فهو لم يتسبب فقط في انتشار سجون والخلاعة والاسراف المادى والاضطراب السياسى وغير ذلك بل كان داعيا إلى حياة علمية مزدهرة ، وكان بذخ الخلفاء نفسه من عوامل انعاش هذا الحياة العلمية أيضا ، فلما " فتح العرب العراق وإيران والشام ومصر ، ورثوا ما في الأولى والثانية من الحضارات الساسانية والكلدانية ، والآرامية ، وما في الثالثة والرابعة من حضارات بيزنطية وسامية قديمة ومصرية ، واخذوا يكونوا من ذلك ومن تراثهم العربى الخالص حضاراتهم الإسلامية (١) وقد ساعد على ذلك اتخاذ اصحاب الحضارات الداخلية اللغة العربية لغة أساسية لهم (٢) ولا ينسى تاريخ الأدب أسماء من نفع منهم في هذه اللغة وأضاف إليها ، كابن المقفع والجاحظ وبشار بن برد وأبى نواس ، ولا ينسى أيضا إسهام جماعات منهم في جميع تاريخ الأدب كالبرامكة الذين اشتهروا بحب اللغة العربية والإمام بأسرارها .

وكانت الترجمة مزدهرة في العصر العباسي على اختلاف مراحلها ، وكانت من مظاهر الازدهار العلمى ، وقد بلغت أوج نشاطها في عهد الخليفة الرشيد الذي أنكى جنوتها بإنشاء دار الحكمة التي جلب إليها الاسفار النفسية من بلاد الروم (٣) .

وقد اشتهر كثير من الخلفاء - حتى أولئك الذين عرفوا بالمجون - اشتهروا - بالاهتمام بالعلم ، وتقريب أهله من مجالسهم ، بل كان بعضهم ذا ميل علمى أو فلسفى أو فنى عال ط فكان مجلس المأمون ساحة واسعة للجدال والمناظرة ، وكان مثقفا ثقافا واسعة عميقة بالعلوم الدينية وبالفلسفة ، وعلوم الأوائل ، فمضى بحول مجالسة في دار الخلافة ببغداد إلى ندوات علمية تتناول كل فروع المعرفة (٤)

ومع ذلك لم تتج هذه الحياة العلمية من هيمنة السياسة عليها ، أو تدخل السلطة السياسية في شئونها وتلوثها فهددت الحياة الفكرية أكثر مرة التي تعرضت لاستبداد الرأي الواحد - فحين مال المأمون إلى المعتزلة ألزم للناس أن

(١) العصر العباسي الأول / ص ٤٤ .

(٢) السابق ص ٩٤

(٣) العصر العباسي الأول . ص ١١٢ .

(٤) السابق ص ١٠٥

يعتقدوا أن القران مخلوقا لا مخلوق واستباح المأمور ثم من قال العكس ، بل
أوقع ببعض العلماء في السجون وامتحن كبرياءهم و اغتال إنسانيتهم^(١)

وكان للأدب نصيب عال من الاهتمام في المجتمع العباسي ، وعلى يد
الخلفاء أنفسهم ، فاشتهر الرشيد بميله إلى الشعر والأدب^(٢) وكانت الحياة
الميسورة لكثير من الأدياء على وجه العموم دليلا دامغا على ما كان يتمتع به
هذه الجانب من الإبداع من اهتمام وحظوة.

كذلك تمتعت الحياة العقلية بالرعاية في هذا العصر ، وكانت كثرة
اتجاهاتها وتنوعها دليلا على ذلك ، وقد اشتهرت بعض الحركات العقلية وأثرت
عل كثير من مناحي الحياة العباسية ، وكان الاعتزال يقف على قمة المؤثرات
العقلية لهذا العصر " فقد بلغ من ازدهاره أن استولى على صولجان الحكم ،
وأن وجهة حسب مشيئته " ^(٣) وكان للاعتزال نول خلقتها أهواء الخلفاء ، فبعد
أن سطع في دولة المأمون ، تعرض لمحنة كبيرة بعد أن زال التأييد الرسمي له
ن ورغم ذلك ظل مؤثرا عقليا عظيما في الحياة الفكرية العامة والخاصة للعصر
، بل ظل محركا قويا لمختلف جوانب هذه الحياة ، حيث " نجح نجاحا كبيرا في
أن يصبغ العقول بصبغة فلسفية ، وأن يمرنها تمرينا واسعا على نقة التعليل
والمهارة في الاستنباط أخفيات المعاني وبقائنها ، والبراعة في تفريقها
وتشعيبها وتوليدها ، مع القياس الناضج والبرهان الساطع ، وسرت من ذلك
أسراب في جميع جوانب الفكر القياسي ، إذ اكب الناس على مناظرتهم ، واكب
معهم الشعراء ، بل قلما نجد شاعرا نابها في هذا العصر الا وتلمذ به ، على
نحو ما هو معروف عن بشار وأبي نواس وابان اللاحق والعتابي ، ومنصور
النمري وأبي تمام"^(٤)

ومتلما عب الناس من مجون العصر العباسي واضطرابه ، وترفه ،
وزدهه ، أفادوا من سموق حياته العقلية والعلمية حيث أتاحت لهم المناظرات
المتوعة والجلسات العلمية بالمساجد وديكاكين الورايقين^(٥)

(١) الطبري تاريخ الملوك والرميل الجزء العار / ص ٢٨٦

(٢) السابق ص ٢٨٨ / ٢٩٠ / ٢٩١

(٣) للعصر العباسي الأول ص ١٣٣

(٤) السابق ص ١٣٣

(٥) السابق ص ١٣٥

والحياة العباسية اعمق واعقد من ان ينسب المصمم بها في هذه الصفحات السابقة ، ولكننا لم نرد الإلمام الدقيق ، بل أردنا الإشارة الى الحطوط الرئيسية والعلامات البارزة لنستطيع أن نقف على تلك المفارقة بين حياة البادية والحياة العباسية ، بل بين الحياة العباسية وما سبقها مباشرة من حياة حكمها بنو أمية ، تلك المفارقة في نفس العربي ليست بالشئ الهين ، بل أن صراع العربي بين ما أورثه من سلوك ومعتقد وعلم ومعرفة وبين زلزال هذه الحياة الجديدة صراع عميق الأثر ، واضح النتائج في طيات هذه الحياة.

ولعل الحياة العقلية والحياة الإبداعية أن تكونا مرآة صادقة ينعكس عليها هذا الصراع وهذا التصدع ، فنحن نرى الشعر في هذا العصر وقد تغير تماما " صار رؤية وموقفا ، وصار حلما وفكرا في ذات الوقت ، واصبح الشاعر احيانا يحلم بعوالم خاصة ، واصبح احيانا أخرى يتوجه إلى الإنسان ، / يفكر فيه ، ويتأمل موقفه من الزمن والكون والمصير ، كما هو الحال في بعض تجارب أبي نواس وابي العلاء والمتنبي "(1)

وقد بحث الشاعر عن ادوات مميزة للتعبير عن اغترابه ، ووجدها فكانت السخرية ، والدعوة إلى العزلة ، والزهد ، وكان الهجاء وكانت أحيانا أخرى دعوات إلى الهدم ، واكسب كل هذا أداء تعبيري متفجر ، فتد تميز الشعراء المغتربون في العصر العباسي باصالة الابداع ، وتفرد الصياغة وتطور الأعراض ، وقد اثار أبو تمام الجدل بشعره وكذا بشار وابو نواس والمتنبي وابو العلاء ، واثار كل هؤلاء قضايا جديدة أيضا مستغزة لكنها صادقة في التعبير عن عوالمهم الجديدة

وبذلك كان الإبداع يحاول أن يصوغ واقفا جديدا يرضى عنه الشاعر كان يحاول أن يكون استعاضة عن عالم قبيح ، " لأن العلاقة بين الروح والعالم الموضوعي ، بين الحقائق والأحلام ، بين النفس والواقع الخارجي متوترة ، هناك في العمل الفني هرب وعودة إلى الواقع معا "(2)

لعلها انن أن تكون ازدواجية الشاعر ذاك الذي لا يتصل الا منفصلا ولا ينفصل الا متصلا ، لأنه في كل حال ، غير قانع غير راكد غير هادئ ،

(1) د. محمد زكي العشموي . موقف للشعر من الفكر والفن الحياة العباسية دار للنهضة العربية . بيروت ١٩٨١ / ٠ ، ص ١٠

(2) د محمد زكي العشموي . موقف للشعر من الفكر والفن في الحياة للعباسية / ص ١٠

غير مستسلم ، غير مطمئن وشاعر العصر العباسي لايني عن التساؤل الحاد عن وجوده إن ظاهرة الشعور بالفربة والانفصال عن الآخرين " صدأ العش " كما يعبر أبو تمام ، نسغ اساسي يجرى في تجربة أبي نواس ، وابي الروحي وابن الرومي وابي تمام والمتنبي وابي العلاء ومعظم الشعراء في المرحلة العباسية^(١) ولعل تميز هؤلاء ابداعياً وعتلياً يكون مبرراً كافياً لنقف عندهم في هذه الدراسة - من خلال هذه الصفحات لنبحث في ماهية اغترابهم وكيف استطاعوا التعبير عن الاغتراب بما ميزهم فنيا .

· الاغتراب في شعر بشار بن برد :

بشار بن برد بصمة واضحة في الشعر العباسي ، لا يستطاع اغفاله حين التحدث عن روح المغامرة والجرأة ، ولا يغفل إذا كان الحديث عن التمرد الابداعي والتجديد والاصالة في الشعر ، أنه مقترن في اذهان الكثيرين بالشك والحيرة والعقيدة المضطربة ، والتهتك الخلقى ، وإن نظرة إلى مجموع ما اشتهر به تؤكد لنا تميزه وتؤكد انه كان يضح بالحياة وبالاغتراب .

ولد بشار عام ٩٠ هـ وتوفي ١٦٨ هـ ، فعاصر بداية الدولة العباسية ولمس بيديه هذه البقعة الزمنية الثقيلة من الحياة العباسية ، وهي تضج بالاضطراب والعنف والتناقض .

وكان شعر بشار يعكس شرها عنيفا للحياة حتى تكاد تظمن إلى أن هذا الشره هو العنوان الأمثل لحياة بشار كلها ، تلمس هذا الشره في هجانه وفخره ، وغزله ، ومدحه - يصاحبه يقين يصارع هذا الشره ، هذا اليقين هو استعصاء الإشباع عليه ، ولعل هذه المفارقة تتبدى في تكوين بشار نفسه تكوينه المادى ، فقد كان ذا جرم عظيم لكنه ظاهر للدمامة ، ممامة الوجه ، وعماء العين ، وهناك مفارقة أخرى في حياة بشار ، هي انه من جنس فارسي ويعيش في مجتمع عربي ولذلك لم يسلم من غمز المجتمع ، وسخريته والتشكيك في نسبه وهويته ، أو على الأقل التشكيك في حسن مقاصده .

كان بشار يعشق الحياة التلقائية العفوية ، هذه الحياة التي يرفضها المجتمع ، ويجاهد بها أعرافه، وكان انتهاجه لهذا النهج من عوامل اصطدامه

(١) لونيس مقنمة للشعر العربي دار العودة بيروت للطبعة الرابعة ١٩٨٣م / ص ٣٩

بالمجتمع ، وأضيف هذا العامل إلى كونه فارسي النسب ، وإلى ما وصف به من خلق فط سليل ، بفعل العماء والصدام مع المجتمع

و اتسعت دائرة العداوة بين بشار بن برد والمحيطين به ، وقد واجهها بهجاء ، مقذع سام ، جعل بعض الباحثين ^(١) يصنئه بالكره العميق للناس في عمومهم أعداء واصدقاء ... ولكن التفاتة سريعة إلى الديوان تطلعننا على نفس بشار الجياشة بالمشاعر الإنسانية ن والمستشعرة لقيمة الصلات البشرية ن بل نقف على معاناة بشار بن برد من فقد (الأخر) والجوع الدائم للأصرة البشرية الدافئة ولعل هذه المعاناة جعلته يهون من أمر الترحال ومشاق السفر ، إذا ما أثمر السفر صديقاً كما يقول في ديوانه :

لعلك تستدني بسيرك في الدجا اخا ثقة تجدي عليك مناقبه

إن الظما إلى الإنسان يلح علي شعره، فنري قسما كبيرا من هذا الشعر تملؤه المعاتبات بينه وأصدقائه، بما يشير إلى خلل في علاقة بشار بالمجتمع، يقول:

يا صاح قد كنت زلالا عنبا ثم انقلببت بعد لين صعبا
مالي، وقد كنت لكم محبا أقصى، وما جاوزت نصحا قصباً

ونراه يصف الصديق في شعره بأنه منه في مكانة اليدين من الجسد^(٢) لذا لا يملك إلا أن يغفر له كما يغفر لبيده، لذلك يقتن في شعره أصول الصداقة، وأصول كل علاقة إنسانية أخرى، كما يخص هذا الشعر بمشاعر للمرارة من المجتمع واقتقاد أي أمل في البناء فيه^(٣) وأي جنوي منه.

و حين تطول معاناة بشار من هذين الشعورين: الشعور بقيمة الإنسان، والشعور بالمرارة من المجتمع، ينتصر بشار في الغالب للإنسانية، فيقف به انفصاله عن مجتمعه علي باب حكمة رائعة واسعة نبيلة، تقضي بأن لا مناص من الكدر إذا أرننا الإنسان العذب في هذه الحياة، يقول بشار:

(١) د. محمد النوبهي شخصية بشار . مكتبة النهضة المصرية . ط ١ ، ١٩٥١م / ص ٧٨ يتصرف .

(٢) للسابق ج ١ / ص ١٣٩ .

(٣) ديوان بشار بن برد / ج ٢ / ص ١٣٥

لخائك، لم تلق الذي لا تعاتبه
فإنه مفارق ذنب مرة ومجانبه
ظمنت، وأي الناس تصفو مشر به^(١).

إذا كنت في كل الأمور معاتب
فعبس ولحدا، أو صل أخاك
إذا أنت لم تشرب مرارا علي القدي

إن البيت الأخير من هذه الأبيات يبدو وكأنه خلاصة تجربة عميقة في الحياة، يبدو وصفا للاغتراب الاجتماعي، لأنه وقوع بين شقي رحي: أما كدر: وإما موت ولكل منهما طريق موحش.

ولا تخلو مرثي بشار كذلك من هذا الشعور بافتقاد الآخر، بل إن هذا الشعور كثيرا ما يكون داعيته للسخط علي قوى الزمان السالبة للأحبة، يقول:

ذهب الدهر بسمط وبرأ وجري دمعي سحا في الردي
وتأببت ليوم لاحق ومضي في الموت إخوان الصفا
فؤادي كجناسي طائر من غد لا بد من مر القضا

هذه المشاعر الرقيقة وهذا التوجه إلي الإنسان اللذان يمتلئ بهما شعر بشار بن برد يقنان علي طرف نقيض مع ما اشتهر به بشار من هجاء مقنع مقذع يكاد يبدو تشفيا من المجتمع وإيلا صريحا له.. والحقيقة أنه لا أساس للتناقض بين الحالين، فبشار إنسان مفطور علي حب الصلة الجمعية والاحتياج إليها، لكنه لاقي صدودا ما من مجتمعه- أو من بعض فئاته- لقبح صورته وعمانه ونسبه الفارسي^(٢) وضعة مكانته الاجتماعية ونحن ندرك ما كان لهذه الأمور من أهمية في عصر بشار الذي كان قريب العهد بالجاهلية المحتفية بالنسب والأصول، والجنس العربي الخالص، والمشتهرة بالغلظة والطباع الحادة.. كما تألب حساد بشار عليه وأوغرت صدورهم حقدًا لجدة شعره وتميزه، ومن ثم وجدوا في نسبه وعمانه وهيبته وغير ذلك ما يشفي غليلهم فضخموا حجم المساوي وجعلوها عنوانا لبشار الذي لم يجد غير اللسان الحاد السليط يدفع عنه مثل هؤلاء.. ومن ثم توصلت بين بشار ومجتمع أسس انعدام الثقة، وتبدلت السخرية اللاذعة^(٣) والتشفي المر، وكل ما يوحى بالكرهية

(١) لسابق/ ص ١٢٨.

(٢) ديوان بشار بن برد/ الجزء الأول/ ص ٣٠٩

(٣) للمصدر السابق. الجزء الأول ص ١٢٣

العميقة للجنس البشري في الظاهر.

احتلت علاقة بشار بمجتمعه جانبا كبيرا من نفسه، لذلك أوسع قسما كبيرا من شعره لها، يصنف فيه أنواع الناس، حتى أنه يوجه إلي ممدوحه ما استخلصه من فلسفة فيهم فيصفهم بأنهم في حسدهم لا يختلفون^(١) عن سم العقارب، وإن حسدهم له هو الحسد الذي تقاتل بسببه قابيل وهابيل من قبل^(٢) وكان بشار يبحث في تاريخ الإنسانية عما يبرر له سلوك المجتمع معه، ولعل تكرار الحسد في الديوان يؤكد أن مكانة بشار الشعرية كانت من عوامل عداا البعض له.

لذلك لا ندهش حين يطمئن بشار إلي معني العزلة، وحين يرتاح إلي ما فيها من خلاص، فيحاول أن ينفي المجتمع من ذاكرته، يحاول أن يند فطرة التواصل والحنين إلي ضمير المخاطبين ويلقي بخلاصة تجربته مع الآخرين في بيت لا نظن أن شاعرا من شعراء الاغتراب في العصر العباسي نجا من دلالاته ، يقول بشار يصف نفسه:

مولعا بالخلو، مما الاقي احسب العيش أن أكون الوحيد!

لعل موقف المجتمع من شعر بشار ، أكثر الأسباب وصولا به إلي الانفصال عن السائد ورفض الواقع المحيط، لكننا لا نقصد بهذا القول أن شعر بشار استنكر من عموم المجتمع، بل استحسنة الكثيرون في زمانه خاصة غير الشعراء، واستقبله جمهور من عامة الناس بالإعجاب، لكنه استنكر في الأوساط الرسمية كثيرا، أي من الشعراء وكثير من النقاد، واستهجت نزعة التجديدية- التي هي في أصلها مذهبه التلقائي العفوي الذي يواجه به الحياة- هذه النزعة "لم ترض أنمة اللغة والأدب، فقد كانوا محافظين أزعجهم هذا الأسلوب الجديد المبالغ في السهولة، وظنوه ركاكة وضعفا.. ولم يبدأ هؤلاء العلماء في تغيير رأيهم عن إخلاص واقتناع إلا بعد وفاته، حين زالت شخصيته للبغيضة التي طالما أفضت مضاجعهم"^(٣) وبذلك خلط كثير من الناس بين موقفهم من شخص بشار المفعم بالم العاهة، والاختلاف في الجنس، وبين موقفهم من شعره.

(١) ديوان بشار بن برد. ج ٣، ص ١١١

(٢) للمصدر السابق/ص ٢٤٣ للجزء الأول

(٣) ديوان بشار بن برد. الجزء الثاني/ص ١٨٧

ولم جراً خبيراً من عداء الجميع بسار يرجع الي اسهره بالتمرد الحاد علي كثير من الثوابت والمعتقدات الفكرية والسياسية والشعرية، بل والدينية أيضاً. وقد اقام بؤذ التمرد كثيراً من الجدران سه. بين المجتمع، ولولا أننا لسنا في مجال إناضة وتفصيل لوقفنا وقفة لانقة عند موقف بشار من المذاهب الفكرية السائدة في عصره، حيث رفض كل هذه المذاهب وأثر الاعتزال، إلي حد اعتقاد البعض أنه "كان من أئمة المعتزلة وقادة الرأي بينهم"^(١) وسواء أصبح هذا القول أم لم يصح، فهو علي كل حال يشير إلي ما اشتهر به بشار من إيثار الفكر والميل إلي الرأي لا الرواية، والتدرة علي التأويل للظواهر، وتكوين الرؤي الخاصة في كل أمر، والاطمئنان إلي شريعة الفطرة الإنسانية والإيمان بالعقل إلي غير ذلك مما قام عليه مذهب الاعتزال.

لذلك لا نملك في هذا المجال الضيق إلا أن نتشكك فقط فيما وجه إلي بشار من اتهام في عقيدته، وما ألصق به من روح العبث فيما يخص أمور الدين الحنيف^(٢) ونعتقد أن روح بشار الثائرة كانت وراء ما تردد حوله من شك واتهام، فقد كان عفيف الإحساس بطاقته الداخلية والقدرة علي الإضافة إلي الحياة، وكان أيضاً مستشعراً لعظم ألمه واضطرابه إلي تشذيب هذه الطاقة وهذا التوجه. وكان كثير المقارنة بين هذين الحالين المتناقضين، صريحاً في استكناه نفسه وتعقيبه علي ما يلزم به "قالوا: توفي له ابن، فجزع عليه فقيل له: أجز قدمته وفرط افتراطته، ونخر أحرزته، قتال: ولد دفنته، وتكل تعجلته، وغيب وعدته فانتظرتة والله لئن لم أجزع للنقص، لا أفرح بالزيادة"^(٣) إنه يعيش بمنطق الحدة، ويعري الأشياء وظواهرها ليصل إلي عظام المعاني بعيداً عن التجسيل والتظاهر والتسطيح، لأنه يحمل روحاً عاشقة للحياة عفيفة الإحساس بالحرمان منها.

ويصف بشار حاله هذه، وما جلبته عليه من صدام بالحياة، وما أوصلته إليه من نفي لحكمه تنتظم هذه الحياة ومقياس، يسير أموراً، يقول:

(١) شخصية بشار ص ٣٨

(٢) شخصية بشار ص ٦٣، ٦٤

(٣) تروي في ذلك حكايات منها أنه "لرُحظ عليه مرة أنه لا يصلي، وكان إذا حضرت للصلاة يقوم غيره ويقعد هو، فكلمه بعضهم في ذلك فكان رده: إن الذي يقبلها تقاريق يقبلها جملة" د محمد زكي العشماوي موقف الشعر. ص ١٣٠ - ١٣١

(٣) حديث الأربعاء ص ١٠٠ ج ٢

طبعت علي ما في، غير مخير
أريد فلا أعطي، وأعطي ولم أرد
فأصرف عن قصدي، وعلمي ثاقب
لعمرى، لقد غت نفسي علي الهوي
أمر علي العيش يوم عدته
هزاتي، ولو خيرت كنت المهذبا
وتصر علمي أن أنال المغيبا
فأرجع ما أعقبت إلا التعجبا
لأبي، فكانت شهوة النفس أغلبا
ولا أثنهي ليلسي إذا ما تأوبا

إن الشعور بالجبرية يهيمن علي الأبيات السابقة، ويرجع إليه بشار بن برد إحساسه بافتقاد علة الوجود الغائية، وافتقاده لحكمة هذا الوجود هذا الشعور بالجبر - الذي يتعارض لأبد مع مبادئ المعتزلة الذين يميل إليهم بشار فيما قيل - هذا الشعور يريح بشار من مؤنة الفعل والنزوع والإرادة، يريحه علي أسطح التمني وال (ليت) وال (لو) كما يؤدي به إلي هوة مظلمة يائسة وإلي مزيد من الانفصال لا عن الواقع فقط، بل عن الآتي أيضا، هذا التناقض هو ماهيته حاصر، إذ ليس فقط الأديب الوجودي هو الذي "لا يتخذ من الأحداث إلا رمزا وعلامات على الجوهر الباطن في اعماق الوجود كله، فالألم الذي يحياه في لحظة هو ألم مرفوع إلي أس السرمدية والانفصال الذي ينطبع في نفسه من موضوع محدد سرعان ما يفتح علي الوجود بأسره"^(١)، وليس الأديب الوجودي وحده المتصف بهذا الوصف، فالشاعر قريب منه كما هي مرفهة الحس تميزه خاصة إذا كان محاطا بواقع يرفضه ويحياه خاصة يتألم منها وبوجود لا يني يتساءل عن غايته.

المفترب شديد الإحساس بقصر العمر الإنساني ورداءة الزمن المعيش، وتبدل أئنة الدهر، لذلك فهو أن أوتي طبيعة مقبلة علي اللذات، وجهها إلي النيل من الحياة ثارا من العمر القصير انه يعيش بمنطق الشعر مخالف، بالطبع منطق العقيدة . وهنا يراه المجتمع شرها شهويا .. وهكذا كان بشار بن برد، ففي كتاب "النزمة لحفيد وكيع بن خلف في الورقة ٤، حضر بشار مجلسا فقال: لا تجعلوا مجلسنا هذا شعرا كله ولا غناء كله، ولا حديثا كله، ولكن تناحيوه فإن العيش فرصة"^(٢)

(١) ديوان بشار بن برد الجزء الأول/ص ٢٤٥، ٢٤٦

(٢) أبو حيان التوحيدي، الإشارات الإلهية نصدير عام بقلم بيروت، دار للطبوعات
للكويت الطبعة الأولى ١٩٨١م

إنه الإحساس الحاد بالزمن والموت، إحسان تولده المعاناة الشخصية
والحرمان من الحياة، وهو أيضا نهم المغترب القلق الخفيف من فجاءات الدهر،
الشاك في ديمومة الأشياء، العالم- بحق- زوال كل شيء، يقول بشار

لا تذكرني ما مضى وشأنك بي
حلوا ومرأ، وطعم ثلاثة
اليوم فإن الزمان ينقلب
في كل وجه من صرته عجبه

وحين يحيط به حصار الدهر وبيئع وجوده يذعن له إذعان السجين
الماتت النبيل، مازجا بين النبل والضعف معا.

ديني لدهر أصم مندلت
أودي بأهل الغدير فانقرضوا
وأرض بما راعك الزمان به
جربت ما جرب الحكيم فهل
يهرب من ريبه ولا هرب
لم يبق منهم رأس ولا ذنب
ما كل يوم يصفونك الحلب
لاقيت عيشا لم يعره نصب

إنه استسلام التمرد، أو تمرد الاستسلام، إنه السطح الراكذ الذي يخدعنا
بهذونه بينما تضطرم جنباته، وهي أيضا ذات الرؤية التي خرج بها من صدامه
بالمجتمع: ليس ماء بلا كدر، هي ذات الخلاصة في البيت الأخير "ليس عيش
دون نصب، فالحياة مجتمع كبير، والمجتمع حياة صغيرة وحين يتأرجح
المغترب بينهما لا بد أن يرفع راية ماء، وأن يبحث عن عالم ثالث غيرهما ولعله
إن يرضع من الشعر، ويستشرق أفاقه ويرتضي حلوله.

الاختراپ في شعر أبي نواس:

عاش ابن هاني في القرن الثاني الهجري، شهد ما ضمته هذه المرحلة
من تحولات سياسية واجتماعية عظيمة، تفتح وعيه علي مكائد السياسة وأصول
اللعبة السياسية، وشهد بعينه ما يبذل من قرابين تحت أقدام الخلافة، فكان كل
هذا دافعا له ليدور حول مفهوم الانتماء، وحيثيات الحكم، وقضية الولاء، حيث
كان "الشاهد علي لعبة التناقض والازدواجية والخيانة، كان العارف بأن بني
العباسي أول من سدد الطعنة، وخرس الحراب في صدور من أعانهم،

ونصرهم: شيعة آل البيت»^(١).

لكن الحكم العباسي كان يظل أبو نواس، لذلك عاش الأخير مقسم النفس بين ولاعين: ولاء ظاهري لسياسة بني العباسي، وولاء دفين صادق لشيعة آل البيت ونعتقد أن هذا الانقسام النفسي، وهذه الحياة السياسية المعقدة كانت مدخل أبي نواس إلى عالم الاغتراب.

أسند أبو نواس ظهره إلى حائط التأمل، وعقد ذراعيه علي سخرية لاذعة تولدت من تناقضات الواقع السياسي- الاجتماعي بالطبع- الذي وضع يديه علي أكثر من معني واحتمال للصنق والوفاء والرحمة والعفة رأي مقابيس كل هذا تهتز في عينيه وتصبح رهن الحاجة والمصلحة ولعل إدراكه لكل هذا وغيره يدعونا إلي مزيد من النظر في سخريته وما أشيع عن مجونة وعبثه، إذ لا يصح في العقل أن نفصل كل مظاهر استهتار أبي نواس عن طبيعة العصر الذي ضمه وما اضطرم في رحم هذا العصر. فآلم أبي نواس من تناقضات الواقع السياسي يصل إلي حد أنه قد سوي في نفسه بين كبائر الأثم، وانتزاع بني العباسي الخلافة من الشيعة، فهو وصل إلي حد الشطط والعبث في أمور العقيدة لأنه فقد توازنه النفسي في المجتمع يقول:

اشرب، وعقّ الوالدين ولا تخافن من أثمّة
وإذا حجبت أحجج علي ظهر الغلام أو الغلامّة
فالنار في شغل بمن حجب الوصي عن الإمامة^(٢)

إن حقيقته أبنا إلا رؤية العظم والدم، رؤية الحقيقة، وقد أسبع علي العصر كله بشاعة البدائية وقسوة مفتتحة السياسي.

ولم يترك أبو نواس الحاكم- الخليفة الأمين دون ادانة - بل حمله عبء كل ثغرة في المجتمع، فتعرض له بالنقد اللاذع والسخرية المرة مشهرا بشربه الخمر، ومنادمته للخصيان والغلاميات، هو لا ينسي في هذا التشهير أن يناديه بـ (أمير المؤمنين) ليضعنا أمام المقارقة بين هذا اللقب، وسلوك حامله، يقول،

(١) د. لحلام للزعيم. أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد. بيروت دار العودة/ الطبعة الأولى ١٩٨١م. ص ١٢ بتصرف.

(٢) عثرت د. لحلام للزعيم علي هذه الأبيات في مخطوطة ديوان أبي نواس ولثبنتها في مؤلفها أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد/ ص ٧١ والديوان المنشور لأبي نواس لا يضم هذه الأبيات.

ميررا تمسكه بالخمير . رواضع بييد علي عوامل عبئه، واسهتاره وما قد
يصل إلي الاسخفاف بروح النير . يقول

أرفضها، والله لم يرفض اسمها وهذا أمير المؤمنين صديقها^(١)

وتبلغ سد يته مداها حين يغمز إني عقيدة الأمين، ويشك في ماهيتها
وصحتها، يقول:

احمدوا الله جميعا يا جميع المؤمنين
ثم قولوا، لا تملوا ربنا أبوق الأملنا
صير الخصيان حتى صير التعنين ديننا

في هذا المجتمع الذي يجهر فيه الخليفة بمظاهر الخلاعة، وكل ما يتناقض مع أحكام الدين وجوهره، في هذا المجتمع الذي ينتهج كبراهه سيرة خليفته، ويتمثلون الخطيئة ويتباركون بها وكأنها الطريق إلي الجنة، في مثل هذه المجتمع يري أبو نواس نفسه ملوما لأنه يجاهر بحب الخمر ويتغنى بأوصافها، في مجتمع لا تهمة الخطيئة في حد ذاتها، بل يهمة سترها وتنظيمها والتوفيق بينها وبين ما يجب إظهاره للملا، أن قضية هذا المجتمع إذن هي: الأفتنة، يظن أبو نواس إلي هذا، فيمثلة ديوانه بكثير من المواضع التي تصور تلك المفارقة، عابثا بكثير من رجال مجتمعه الأفاضل- ظاهريا- ساخرا ببعض الذين نجحوا في الحوز علي الثقة والاحترام، ومن بين هؤلاء الوزير الفضل بن الربيع^(٢) ويبرر أبو نواس مجونه وعبئه بأنه وليد المتاح أمامه، ونتاج أرض كاملة، يقول:

ما كان إلا الجري في ميدانهم في كل خزي والمجانة ديني
لا العذر يقبل لي، ويفرق شاهدي منهم ولا يرضون حلف يميني

إن الصدق قضية أبي نواس- فيما يخص اغترابه، أما فيما يخص الناحية الأخلاقية فإن هذا الصدق لا يغفر له في حكمنا المجاهرة بالخطيئة، ومن ثم النزوع إليها- فكما كان هذا الصدق قضيته فيما يتصل بالولاء السياسي، كان أيضا محك علاقته بالمجتمع، فهو يعتد أن المجاهرة بالمعصية أقل في الجريرة

(١) ديوان أبي نواس تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي مطبعة مصر ١٩٥٣/ ص ٩

(٢) ديوان أبو نواس تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ص ٤٥٩

من إخفائها والتظاهر بنقيضها، ولما كانت طرائف كثيرة من مجتمعه رهن الاضطراب والفوضى والنفاق تجرأ أبو نواس علي كثير من رجال الدين والفكر والأدب في عصره إذ رأي فيهم هذا التناقض وتلك المفارقة.

وهنا انتبه أبو نواس إلي الخمر رأي فيها أصل الاختلاف بينه وبين المجتمع فالمجتمع يعكف على الخمر لكنه يخفي علاقته بها، أما أبو نواس فهو يجاهر بهذه العلاقة ويرأها مناسبة جيدة لإعلان تمرده وانفصاله واختلافه، فكان إصراره علي الخمر إصرارا "علي تحقيق الحرية التي تتجسد له من خلال إحلال القانون القطري محل القانون الوضعي"^(١) إذن فهو يحاول أن يتجاوز بالخمر حدود الخطيئة والعبث إلي حدود الموقف والرؤية والتعبير عن الاغتراب، ورفض الزيف الاجتماعي، بان يتخذها وسيلة لتصوير اغترابه:

ألا فاسقتي خمرا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر
فما الغيب إلا أن تراني صاحيا وما الغم إلا أن يتعني السكر

أبو نواس إذن لا يري الخمر خطيئة إذا ما اقتربت بالصدق والمجاهرة !! بل يراها رمزا حيا وعالما برينا يواجه مجتمعا مزيفا عاصيا يدعي الفضائل، لذلك فهو لا يضمن علي الخمر بأن يجلد في سبيلها، وأن يرفض لأجل نداماها أي مجلس في المجتمع، بل لا يتورع عن أن يدين خليفته بشربها خفية والتوصل من تبعاتها، إن المجتمع بأكمله يقف في شعر ابي نواس مقابل عالم الخمر ومجتمعها ونداماها، وأن للمقارنة بين المجتمعين في صالح الخمر، فالندامي يدينون بدين الفطرة والصدق والعفوية أما المجتمع فله دين واحد هو دين الأكنعة ولا يطبق النواصي هذا الدين وهو الذي يسعى لاهتا ليبحث في خمرة عن الشمس والحقيقة والعراء، أو ما يظنه صدقا وبراءة.

لم تكن هزيمة أبو نواس في حبه لـ "جان" الجارية، لم تكن الهزيمة الوحيدة التي مني بها في علاقته به الآخر، بل امتلا ديوانه بوصف مشاعر الفقد والوحشة والقتل في العلاقات الاجتماعية، وامتلا شحبا وحنينا إلي أصرة إنسانية حقيقته، ويعجز أبو نواس عن إيجاد هذه الأصرة، لأنه يعيش

(١) ديوان ابي نواس / ص ٥٩٦.

في مجتمع لا يألف قوانينه وأصوله فالتجانس مجال، ومن ثم فالصلة الحقيقية مستعصية حتى علي الخاطر، وهنا تبرز الخمر مرة أخرى، وتبرز إلي الوجود وتشير إلي أبي نواس بقدرتها علي الاستعاضة وخلق الانتاس فإذا كان النواصي قد جهر يائسا.

فسد الخلائق كلهم فانظر لنفسك من نواصي^(١)

إذا كان قد جهر بهذا، فقد مثلت له الخمر العالم المقاوم للاغتراب لذلك يصورها في صورة الام :

كذلك إذا رزئت أخا
فليس بيني وبينه نسب
قطر بل مربعي، ولي بقري
الكرح نصيب وأمي العنقب
ترضعني درها، وتلحفني
بظلمها والهجير يلتهب^(٢)

ويصفها بما افتقده في المجتمع: الوفاء، الصدق، الإنسانية، الدفاء، فهي تكفيه مجتمعا قائما بذاته يغنيه حتى عن الندماء^(٣) الذين إذا استشعروا للخمر لذة واحدة مباشرة هي السكر والغياب،^(٤) فإن لأبي نواس لفتين معها، إحداهما لذة الأعماق والتعويض، لذا يتمسك بها لأنها المصدر الوحيد الأمثل للإشباع^(٥).

إن صورة أبي نواس في شعره صورة رجل لا يترك زقه أبدا، ولا يني عن التآرجح يمينا ويسارا مهددا بالخمر، لا عنا لأجلها كل الأشياء متهما كل من لا يقربها، لا العكس- وهي صورة تتعارض مع صورته الأخرى التي نراه فيها ذا رؤية خاصة في الدين- أو علي الأصح- ذا اهتمام خاص به، يدفعه إلي أن يحاول فلسفة أدلة العفو عن المؤمن، كما يدفعه هذا الاهتمام إلي أن يحتد في نقاشه مع الحسن البصري حول أدلة العفو هذه وحول حدود الكبائر في الإسلام، إن الصورتين متعارضتان في الظاهر تماما، ولكن نظرة إلي طبيعة العصر الذي عاش فيه أبو نواس لا تجعلنا ننكر هذا الاضطراب، هذا العناء، أو هذه

(١) ديوان أبو نواس/ص ٥٥٩.

(٢) المصدر السابق ص ٤

(٣) لسابق/ص ١٨٠.

(٤) لسابقة/ص ١٧٩

(٥) لسابق/ص ١٧٩.

الحيرة، والتردد في تحديد حدود المعاني والتأشياء، هذا العصر لا ينكر رجل الفكر الذي يدلي ببلوه في الفقه وعلوم الآداب والفلك والشعر، وفي ذات الوقت يستطيع أن يملأ صحاف الجوارى والتينان بفضة والذهب والهدايا، وأن يسابق أعظم سكير في شرب الخمر، عصر أبي نواس - وكل مرحلة تنتمي إلي الحكم العباسي - لا تنكر هذه الصورة: صورة الإنسان الذي يأخذ من كل شيء بطرف، لذلك نعتقد أن استهتار أبي نواس "لم يكن عن كفر، بقدر ما كان عن ولع بما لا يملك له دفعا، والدليل علي ذلك سببه في فران وجدله مع الفقهاء في شأنه"^(١) إن العربي في هذه المرحلة غاية في الانفصال، تتجاوزه كل الأشياء وكل الحيوانات وكل الشهوات، وكل الحواجز معا، وهو يدفع كل هذا تارة، ويستسلم كثيرا له ولعل "إغراء المعرفة" من أكثر عوامل الجذب لإنسان العصر العباسي وأكثرها قدرة علي صياغته، فقد تعددت عوامل المعرفة وطرائقها، وهي جبارة في ما تعد به من عوالم فياضة رحبة جديدة، وقد اختار النواصي الخمر طريقا لا للإنتاس فقط، بل للاغتراب، والتميز، والمعرفة الحقيقية التي تمكنه من منهجه الإنساني، وتقنين المجتمع وتحديد، وفهمه بل وتحديد هويته الشخصية، وإعلان القدرة علي الاختيار، وتنظيم النفس، لذلك نعتقد أن الخمر لم تكن فقط قضية أخلاقية في حياة النواصي، بل هي قضية من قضايا المعرفة والرغبة في المواجهة والتعبير، الخمر تصور الاغتراب الاجتماعي لأبي نواس، وتعبير عن حلمه بالانتماء.

إن رفض الواقع ومن ثم الانفصال عنه خطوة واسعة تأخذ المغترب من الأرض إلي الأفاق، والتساؤل الدائم عن أسرار السماء ربما للبحث عن حكمة الوجود، ربما محاولة لاستكناه المصير، أو السعي وراء الدفء الذي استعصي وجوده في الواقع، أو الانتماء إلي عالم آخر لا يضحج بالقبح والخلل: الاغتراب الاجتماعي والبحث عن الحقيقة الميتافيزيقية، وحوادث في وجود واحد، وفي شعر أبي نواس تساؤل عن مفردات العالم الماورائي، ومعاناة لبعض الحقائق التي أثار الله حجبها عن الإنسان.. علما بطبيعته وطرق معاملته وقدرته علي الاحتمال، رحمة به لا استخفافا.

والزمن لحد أهم هذه القضايا الميتافيزيقية في شعر أبي نواس يتبعه في

(١) موقف للشعر من الفكر والفن في الحياة العباسية/ ص ٢٠٤، ٢٠٥.

كل اشكاله ظنا منه أن الزمن أيضا يلاحقه، وظنا منه أنه حين يراقبه بميته أو ينال من قوته، وذهاب الشباب هم يلاحق كل إنسان، لكنه يتخذ عند المغترب دليلا علي العيب أو المحدودية والضعف، دليلا علي التقيد، يقول أبو نواس:

فالآن صرت إلي مقاربة وحططت عن ظهر الصبي رحلي^(١)

وحين يمدح الخليفة الأمين يمدحه في معني معقد، أو ينسب إليه صفة مركبة، هي للقدرة علي الإقناء، أي القدرة علي الإيجاد والديمومة، فهو يخلع عليه صفة الزمان أو الدهر، ويتجه إليه بمشاعر هي خليط من البغض والإكبار والرحبة والتطامن، يقول:

يا أمين الله عش أبدا فإن أنت أمنيئا فكمن^(٢)

فإذا كان أبو نواس قد مزج الموت بالحياة في هذا البيت، وجعل من فناء المجموع قربانا لوجود الفرد- علي المستوي الاجتماعي، فهو أيضا يحمل رؤية ميتافيزيقية تري العنم والوجود ممتزجين مختلطين معا في كيان واحد.

وأبو نواس يجسد معاناته من اختلاط الموت بالحياة حين يصور في شعره الصراع الراجع بين الطلل والخمر.

والطلل في شعر أبي نواس يثير به أكثر من قضية فالنواسي يواجه به المجتمع أو يحدين به المجتمع، ذلك المجتمع الذي يرتكن إلي الموروث، وإلي طرائق ناقصة للمعرفة، فالإصرار الاجتماعي علي الطلل إصرار علي موروث لا يمت إلي الحياة الحاضرة بصلة، أي هو إصرار علي الجهل والركود، والانتماء المزيف إلي حيوات لم تمارس بالكيان الشخصي، علي النقيض من الخمر- كما يري النواسي- التي هي ممارسة حاضرة، ومعرفة ملموسة:

فعلام تذلل عن مشعشة
تصف الطلول علي السماع بها
وتهيم في طلل وفي رسم
أفدو العيان كأنت في العلم

(١) ديوان أبي نواس/ص ٤١٣ .

(٢) ديوان أبي نواس/ص ٤١٣ .

وإذا وصفت الشيء متبعاً لـ بل من زلل ومر وهم^(١)

إن رفض الطلل في شعر أبي نواس رنخ للمعرفة المزيفة، إصرار علي حرية التواجد، وهذا الموقف من الطلل كمرور اجتماعي يختلف عن موقف أبي نواس من الطلل كقضية ميتافيزيقية أو كمعادل فني لتناهي الإنسان واندثاره وتحلله، بما يجعل أبا نواس لا يعرض عن بكاء الإطلال، بل أن جزءاً كبيراً من شعره يعتني بهذه التجربة.

ويمتزج الطلل مع الخمر في شعر أبي نواس لأن الطلل في تجربته الشعرية ليس تقليداً بل هو تصوير لفرعه من الفناء والمحدودية، فهو رمز يبرز صراع الشاعر مع قوي الزمان والموت، فالطلل هنا رمز لموت الإنسان، أما حلم الشاعر بالحياة والخلود، فهو يتجسد في الخمر التي تستطيع أن تبقى عمراً كاملاً في دنيا دون موت، بل هي تزداد جمالاً كلما عتقت علي النقيض من الإنسان الذي يشيخ بمرور الزمن فالشاعر إذن يستعير قوي خارجية لمواجهة الفناء، هي قوي الخمر، ويرى في الخمر قوة التعويض عن النقص يقول:

والكأس أهواماً وأن رزنت بلغ المعاش وقللت فضلي
نخرت لأنم قبيل خلقتَه فتقدمته بخطوة القبيل^(٢)

الطلل هو الرسم (المحيل) هو الإندثار والأثافي والحنن التي تبدو كشواهد القبور تحوطها رياح تعزف لحن الموت، أما الخمر عند أبي نواس، فهي تلك الحسناء (المشعشة) التي تحوطها القيان والأوتار والبهجة الطلل فناء والخمر حياة، فإذا أصر المجتمع علي اتباع الطلل فهو يصر علي رؤية تخالف رؤية أبي نواس، ويصبح الصراع أعمق معني من الشعبية والعروبة وغير ذلك، يصبح موقفاً متكاملًا من الحياة:

عاج الشقي علي رسم يسائله وعجت أسأل عن خمارة البلاد^(٣)

والخمر لأنها حياة يشبهها أبو نواس دائماً بالشمس والنجوم والنور^(٤) والحياة والحقيقة والمعرفة، الخمر سعي إلي الحياة، لكنه ليس سعياً مطمئناً بل

(١) المصدر السابق/ص ٥٨.

(٢) الديوان/ص ٤٤.

(٣) المصدر السابق/ص ٤٦.

(٤) السابق/ص ١٨٧.

سعي يشوبه القلق والخوف والترقب للهزيمة، فأبو نواس يبادر لذاته مبادرة الدهر لها أي ينتهبها، خلسة وفجأة، وعنوة، وكأنه طرفة بن العبد الذي يفني الموت بالموت ويفني الموت بالحياة.

رأيت الليلي مرصدات لمدتي فبادرت لذاتي مبادرة الدهر^(١)

فهل يمتزج حب الحياة في نفس أبي نواس بتعجل الموت هربا من انتظاره، لا تستبعد هذا، إذ "ليس بين المقبل علي الحياة والخائف من الموت فروق كثيرة"^(٢) بل أن عميد الأدب العربي بعد أن وصف أبي نواس بالهزل والمجون^(٣) عاد فقرنه بأبي العلاء في التشاؤم وكرهية الحياة، وأن كان كل منهما- في رأيه- يكرهها بطريقته، أبو العلاء بالإعراض عنها، وأبو نواس بالنهل منها^(٤).

وكرهية الحياة لا تتفق مع طبيعة نفس أبي نواس إلا أن رأي عميد الأدب يؤكد أن معاناة لبي نواس من الوجود معاناة واضحة، وأن مجونة ونزقه لم يبقا عند حد المجون والنزق بل كانا تخبطا عقليا.

ورؤية لبي نواس للوجود الإنساني رؤية عنمية علي الرغم من هذا الضجيج واقتعال الحيوية الدائمة التي ترفض الموت- في الطلل- وتأنس بالحياة- الخمر- وهذه الرؤية العدمية تدفعه لأن ينتصر للطلل علي الخمر في صراعهما معاً، فمواضع الطلل في شعره- كما سبق وكُننا- هي في الغالب للخمرات وعلي وجه الدقة خاتمة الخمرات فكانه يستسلم لهيمنة الموت علي الحياة وكان رفضه للموت رفض متخاذل يحمل روحا يائسة في الحقيقة.

والأبيات الطللية التي يختم بها أبو نواس خمرياته هي في الغالب أيضا تضمين من شعر آخرين وأشعار ذي الرمة تقف علي قمة الأشعار التي يضمونها أبو نواس خمرياته، وكأنه يجسد معاناته للضياع والتمزق ويؤكد أن صخب الخمر لم ينسه أبدا خاتمته الحقيقية: الموت، وفي إحدى خمرياته يصف أبو نواس طقوس الخمر ونداماها وينتقي منهم من يشدو للطلل، يقول:

(١) للديوان/ص ١٣٩.

(٢) د. مصطفى ناصف. دراسة الأدب للعرب. دار الأندلس بيروت/ط٣/١٩٨٢م ص ٢٥٨، ٢٥٩.

(٣) حديث الأربعاء/ج١/ص ١١١، ١٢٧، ١٢٨.

(٤) حديث الأربعاء/ج١ ص ١١، ١٢٧، ١٢٨.

و غني لنا صوت بلحن مرجع 'سري البرق غربيا فحن غريب

لا يكاد ينفصل الفناء والخمر والندمان عن الطلل في شعر ابن هاني^(١) بل يتلازمون في تصوير تناقضات الحياة وتصوير تلك الحدود الغائمة الودمية بين الحياة والموت.

وتبدأ بعض مدائح أبي نواس بالطلل بما ند يبدو اتباعا للتقليد الشعري ، لكن سرعان ما يتبين النقيض حين نجد أن - - - - - في كثير من هذه المدائح المبدوءة بالطلل يعرج علي خمره معلنا إيثارها والإصرار عليها^(٢)، وكأنه يضع الخمر والطلل قبالة الممدوح، مؤثرا الصدق والانتماء لما يحب

وفي شعر أبي نواس طلل جديد مبتكر هو طلل الخمر، طلل الحانات والندامي، فكثيرا، ما يصف أبو نواس مروره بحانة متهدمة تبرز منها نقوءات خريه هرمة، ويصف ما كان فيها من حياة اندثرت و (أمحلت) وهذا النوع من الأطلال في شعر أبي نواس يؤكد أن الخمر والطلل لم يكونا فقط تعبيراً عن مرحلتين متناقضتين وفنيا، أو عن حقيقتين متصارعتين، بل هما صراع بين المعني الكلي للوجود والمعني الحقيقي للموت، أن طلل الخمر، هو نعي العيش الحر^(٣) نعي للبهجة والمرح والوجود الصافي.

وموقف أبي نواس من الموت لا يتضح بشكل كاف في رثائه للأخريين، حتى في رثائه لاساتذه "والبة بن الحباب" بل يكاد يبدو تقريبا مستمدا من التداعي التقليدي لمعاني الرثاء، مما شجع د. طه حسين علي أن ينفي عن أبي نواس قوة الرثاء أو قوة الإحساس بالرثاء لأنه ذو طبيعة مبهجة^(٤). رغم أنه وصفه بالتشازم وكراهية الحياة قبل ذلك وشبهه بأبي العلاء المعري- لكن الباحث عن للرثاء الحقيقي في شعر أبي نواس لن يجده إلا في تلك المواضع التي يرثي فيها نفسه مراقبا موتها خطوة خطوة، كما راقب من قبل مشيها.

تب في الفناء سفلا وعلوا وأراني أموت عضوا فعضوا^(٥)

(١) للديوان/ ص ١١١ .

(٢) للديوان/ ص ٦٥ .

(٣) للديوان/ ص ٤٠٢ .

(٤)

(٥)

ويفرد كثيرا من قصائده لشكوى الدهر وتصاريفه، إحدى هذه القصائد تبلغ ثمانية وثمانين بيتا يسوقه فيها التأمل إلى اليأس من معنى الوجود الإنساني، لأنه وجود ذو مصير فاجع، يقول:

أري كل حي هالكا وأين هالك وذا نسب في الهالكين عريق
فقل لغريب الدار أنك ظاعن إلي منزل نائي المحل سحيق^(١)

إن الظعن يرفقه الخراب والوحشة، وأن الظاعن يترك وراءه ديارا لا تلبث أن تصبح طللا، وبذلك تبدو رؤية أبي نواس متجانسة مكتملة ويبدو اغترابه الاجتماعي لصيقا باغترابه عن الوجود، ومثلما هرع إلي الخمر خالقا منها مجتمعه وألفه، هرع إليها هنا أيضا فزعا من أوضاع الوجود طالبا منها المعرفة، متعديا بها حدود الشهوة الحسية إلي مصاف المعرفة والرمز:

هاتا بمثل الراح معرفة بلطافة التأليف والود^(٢)

ومادامت الخمر معرفة فهي لا تسقي بالفم، بل بالعقل، هي خمر غير خمر الناس جميعا لذلك ينفي عنها الخطيئة فكينونتها فريدة:

فأتاك شئ لا تلامسه إلا بحس غريزة العقل^(٣)

وما دامت الخمر قادرة علي إشباعه وإيناسه، فهي تستطيع أن تنود عنه الفناء وأفعال القبر، لذا يصبحها عند موته ظانا بها القدرة علي إذابة الوحشة والتهورين من الرحيل ومقاومة الاغتراب، يقول أبو نواس:

فيا أيها اللاحي اسقني ثم غنني فإني إلي وقت الممات شقيها
إذا مت فادفني إلي جنب كرمة تروي عظامي بعد موتي عروكها

الاغتراب في شعر بن الرومي:

ويا أيها المرعي للذي اهتر نبتة وبكر فيه خصبه وتروحا
عذرتك لو كانت سماء تشعت سحائبها أو كان روضا تصوحا

(١) السابق/ص ٣٩.

(٢) السابق/ص ٤٣.

(٣) السابق/ص ٩.

ولكنها سقيا حرمت رويها

وعارضها ملق كلالك جنحا^(١)

لم تخرج حياة ابن الرومي عن معني ذمه الأبيات علي امتداد عمره من عام ٢٢١هـ إلى عام ٢٨٣هـ، فابن الرومي لم يستقبل الحياة بخمس حواس بل بمائة حاسة، أو بظما مائة حاسة، فهو يستشعر الزهرة الوضاعة والوجه الحسن والفاكهة اليانعة والطعام الشهي والغادة الجميلة، نهم لا حد له تعذر علي الإشباع ليس فقط لغلوه، بل لوجود ابن الرومي في مجتمع مضطرب يحتكم إلي الصدفة والحظ لا إلي العمل والكفاءة، وكان هذا المجتمع أحد عوامل حرمان ابن للرومي الذي ما انفك يعاني منه، ويشكوه حتى كاد هذا الحرمان يكون للمعني الغالب علي شعره^(٢).

وكان شعر ابن الرومي- أو كانت طبيعة شعره- عاملا من عوامل إعراض الممدوحين عنه- كما سنبين بعد قليل- لذلك نري في شعره الممدوج البخيل الذي لا نعتقد أن صورته توجد في غير هذا الشعر فابن الرومي يشكو شح ممدوحيه ويراهم صورة من دهره للبخيل العنيد، ويسخر ابن الرومي من حاله، حين يري أن طريقه الوحيد لبلوغ ما يأمل هو مخالفة القياس بأن يمدح البخيل كذبا عليه وجود يقول:

مديحي عصا موسي وذلك أنني ضربت به بحر الندي فتضحضا

سأمدح بعض الباخلين لعله إن اطرده المقياس أن يتسما^(٣)

فالحرمان قضية ابن الرومي الرئيسية في الحياة، وقد وضحت في شعره^(٤) واستدعت معاني أخري لا تخرج عن دائرتها، فقد تتبع أحد الدارسين^(٥) شكوي الدهر في شعر ابن الرومي فوجدها فيما يزيد عن خمسين مقطوعة وقصيدة في هذا الشعر فضلا عن للمتأثر من الأبيات وهذا المعني وحده- شكوي الدهر- يكفي وجوده بهذا الشكل لصيغ الديوان باللون الداكن.

(١) ديوان ابن الرومي. تحقيق د. حسين نصار. الهيئة المصرية العامة للكتاب مركز تحقيق التراث مطبعة دار الكتب الجزء الثاني ١٩٧٤م/ص ٥١٩.

(٢) للمصدر السابق/ ج ٢/ ص ٥١٩.

(٣) للمصدر السابق/ ج ٢/ ص ٥٢٠.

(٤) ديوان ابن الرومي. ص ١٣٧، للجزء الأول.

(٥) د. علي مطلق/ ابن الرومي في الصورة والوجود/ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. الطبعة الأولى ١٩٨٢م، ص ٢٢.

وانعدام الميأس في المجتمع يعني أن هذا المجتمع متخبط هزيل مهدد بكل خطر، كما أن مثل هذا المجتمع يفرض على أفراده اللجوء إلى مسارب غير شرعية للحياة والتنعم بحقوقهم فيها هذه المسارب غير الشرعية قد لا تكون السرقة أو القتل أو الاحتيال والغش و... و... قد تكون اللجوء إلى العزلة الداخلية إلى (الذات) بكل وطاويطها وعناكبها وغموضها واهتزازها، فهي ذات محبطة لن تعطي لصاحبها- الذي لجأ إليها مجبرا مقلسا- إلا الخواء والضياح، وقد كمن ابن الرومي في ذاته وانطوي في عالمها، واستسلم لهواجسها يستشف منها نبوءة ما وأطلق على هذا الاستشفاف المريض تقاؤلا وتشاؤما، فغلبت عليه صفة التطير و (الوسوسة القهرية)، وصار أضحوكة زمنه ومعاصريه، واستغل المتاجرون بعذاب الغير تطيره، وراقت لهم هذه التسلية، وأشفق البعض الآخر من مصاحبته الكئيبة فهجره، وأنف العقلاء من عالمه القلق فتركوه، وأعرض عنه اصحاب النفوذ والمال الذين يبعون من الشعراء المسامرة والصحة الطيبة، وتراكم هذا كله في نفس ابن الرومي وزاده انفصاله عن حوله استغراقا في العزلة والوحشة، وإيماننا بقانون داخلي مشبع بالحرمان انفصالا كانت الطيرة والتقاؤل قانون استشراف الغيب "لأنه فقد كل أمل في الإصلاح السياسي والاجتماعي، وخاب ظنه في كل شيء"^(١).

ويترجم ابن الرومي لنفسا ترجمة صادقة عظيمة للدقة، في إحدى قصائده وهي قصيدة يمدح فيها "أحمد بن ثوبة" حيث يترك قليلا مجال المدح مستكثرا مفاوز النفسية، ونعتقد أن هذه القصيدة من أكثر قصائد ابن الرومي دقة في وصف عالمه الداخلي المشبع بالاعتراب يقول:

تتازعني رغب ورهب كلاهما	قوى، وأعياني اطلاع المغايب
فقدت رجلا رغبة في رغبة	وأخرت رجلا رغبة للمعاطب
أخاف علي نفسي وأرجو مفازها	واستار غيب الله دون العواقب
ألا من يريني غاييتي قبل مذهبي	ومن أين والغايات بعد للمذاهب

هذان إنن هما شقا الرحي اللذان يتتازعان ابن الرومي بينهما: الرغبة العنيفة في الحياة والخوف منها، أي التطلع المهدد بالإعاقة، فضلا عن العجز

(١) عبد الحميد محمد جيدة. لتجهاء عند ابن الرومي. ماجستير أداب/جامعة الإسكندرية

الإنساني العام عن معرفة المصير.

ويستطرد ابن الرومي في ذات الأبيات إلي وصف منزله ووصف معيشته فنراه دون أن يدري يصف حياته مجملًا ووصفا رمزيا بالإسقاط ، فهو يتشوف إلي الغيث الذي يمنعه الدرر عنه في حال الظمأ، وهو أن أعطاه لم يعطه للسقيا، بل ليروحل الغيث طريقه فيزل ويدمي:

سقي الأرض من أجلي، فأضحت مزلة تمايل صاحبها تمايل شارب^(١)

أما بيته، فهو رمز نكي لهذه الحياة المتعثرة، لذا يصوره متهدما ذا سقف مرث لا يأمن معه علي روجه.

يؤرثني سقف كأي تحته من الوكف تحت المدخات الهواضب
والبر شبيه بهذه الحياة الخالية من المنطق، أو هو صورة منها، لأنه ليس للأمان والوصول، بل للخوف والتعثير والإعاقة، يصفة بقوله:

يجف إذا ما أصبح الريق عاصبا ويفدق لي والريق ليس بعاصب^(٢)

والبحر يبدو وكأنه الموت المحتم لابن الرومي، لأن حظه يبدو له عاثرا لدرجة لليقين من للغرق قبل الحجر والصخر:

ولم لا ولو للقيت فيه وصخرة لوفيت منه للقر أول راسب

إن ابن الرومي جمع الأرض والسماء من خلال وصفه لبيته وطريقه والبر والبحر معا وأن محصلة وصفه لكل هذا أنه يعيش علي هامش الحياة، لذلك هو يرفضها، يرفض وسجونها وهزأها منه.

وكما كانت شخصية ابن الرومي من عوامل أعراض الكثيرين عنه، كان شعره أيضا عاملا رئيسيا من هذه العوامل، فروح هذا الشعر تكاد تكون غريبة علي عصره، روح تحثني بالمنطق والدقة والاستقصاء، والاستطراد والإلمام بجوانب للموضوع بما يجعل من القصيدة أشبه ما تكون بالنثر في خصائصه وطريقته حتى اشتهرت قصائده بالطول السرف الباعث علي الملل

(١) للديوان/ الجزء الأول / ص ٢١٤

(٢) للديوان/ الجزء الأول / ص ٢١٤

والرتابة لدي كثير من معاصريه، كما أن هذه النصوص لم تحف كثيرا بما يهوج الممدوحين من موضوعات ومن صياغة ننية، غلبت الروح العامة عند ابن الرومي روح القنوط والشكوي واليأس على شهره، فلم يسعد ابن الرومي بشعره، ولم يتح له هذا الشعر الخلاص من حياته المرهقة، بل كان هذا الشعر غير المستساغ من معاصريه من عوامل غصته وإحساسه بالظلم واليأس والإغراق في العزلة، يقول:

نظرة في وجوه شعري وجوه أوسعت قبل خلقها تقبيلها
فعدت وهي زاريات عليه والسذي أنكرته منها أتيجا^(١)

ويضيق علي ابن الرومي مجال التكسب بالشعر وتزداد حياته شظفا إلي حد أن يمدح أحدهم- وهو أبو جعفر بن اسحاق النوبختي- من أجل الكساء^(٢) وكذا يفعل مع محمد بن علي النويختي^(٣) وتسوء العلاقة بينه وبين الممدوحين فيراهم رمزا لمجتمعه الظالم، ولبلا علي وجوده في زمن كئيب مختل، فكانه يذم المجتمع كله حين يذمهم:

يا مادح القوم اللئام وطالبا نيل الشحاح
ما أنت في زمن المديح ولا الهجاء ولا السماح^(٤)

وإن نفيه لقيمة المديح والهجاء والسماح نفي لكل صلة إنسانية وتشوف للعزلة وحين يوقع البعض بينه وبين الممدوحين فتسوء علاقته بالقاسم بن عبيد الله وأبي جعفر الوراق^(٥) لينقلب مديحه إلي هجاء، بل هو يفحش في هجاء الأخير وكذا في هجاء خالد التحطبي.

وعلاقته لا تسوء بممدوحيه فقط، بل بكثير من الناس نستدل علي ذلك من كثرة الشعر الذي قاله في العتاب، حتى إنه وجه إلي أبي القاسم التوزي الشطرنجي قصيدة من مائة وستة وأربعين بيتا في هذا المعنى^(٦) وقال فيه

-
- (١) ديوان ابن الرومي/ الجزء الأول/ ص ٢١٥.
(٢) للمصدر السابق/ الجزء الأول/ ص ٢١٦.
(٣) ديوان ابن الرومي/ الجزء الثاني/ ص ٥١٣.
(٤) للمصدر السابق/ الجزء الأول/ ص ١٥٣.
(٥) للمصدر السابق/ الجزء الأول/ ص ١٥٩.
(٦) للديوان/ الجزء الثاني/ ص ٥١٥.

قصيدة أخرى من مائة واثنين وخمسين بيتاً أيضاً في المعاتبة^(١).

ولا يري ابن الرومي فيمن حوله إلا متصدياً له بالأذى والسخرية
والإيقاع بينه وبين من يمدح كيدا وحسداً ورغبة في الاستحواذ علي ما حاز ،
وإمعانا في هوانه، يصف هؤلاء بقوله:

صادفوا نكبتي فكانت لسيهم للقلوب المراض منهم شفاء
سعر الله في الجوانح منهم سعة النار، تلكم البغضاء

وهو لا يستثنى من ذلك الأصدقاء، بل أن هؤلاء أول ما يخشاه، ويظن
به الأذى، فالأصدقاء في اعتقاده دروع للأعداء^(٢) لذلك يتجنبهم حتى لا يوجه
إليهم عتابه، لأن عتابه لهم إجهاد لنفسه وقلمه دون طائل^(٣) ولأنه لا يعاتب إلا
الصفوة من الناس^(٤) وقد افتقد هذه الصفوة^(٥) ووجد الناس خلفاً لما كان يظن.

ويصور ابن الرومي علاقته الشائكة بالمجتمع، فتراها ذات العلاقة بينه
وبين الحياة ، علاقة الرعب والرهب، أو الرغبة المعوقة، يقول:

منع ومنح وإسغار وتكرمة وشد عقد، وطورا نقض مشدود
فأنما أنا في لبس ونذبذة وخوف جان يمرّ البقم مرصود^(٦)

هذه العلاقة المضطربة تحدوه إلي أن يدعو إلي مجانبة الناس^(٧)
واعترزهم، ويحتج لهجانه فيهم بأنه لم يبصر منهم من يدفعه إلي ترك الهجاء
ويقول:

تيل لي: لم نممت إلبرايا وهجوت الأنام هجوا قبيحا
قلت: هب أنني كذبت عليهم فاروني من يستحق المديحا^(٨)

-
- (١) الديوان/ الجزء الثاني/ ٥١٣.
 - (٢) الديوان/ الجزء الأول/ ٨٦ ، ٨٧.
 - (٣) الديوان/ ج٢/ ص ٨٠٩.
 - (٤) انديوان/ ج٢/ ص ٧٧٠.
 - (٥) للديوان/ ج١/ ص ٢٣١.
 - (٦) للديوان/ ج١، ص ٢٣١.
 - (٧) للديوان/ ج٢، ٦١٣.
 - (٨) للديوان/ الجزء الأول/ ص ٧٢، ٧٣.

رسم ابن الرومي صورة دقيقة لعلاقته بمجمعه، رأينا فيها هذا المجتمع المتفكك المضطرب يقف عائقا كبيرا بين الشاعر وأمانيه، بل هو يمثل له الضرورة والتعسّل مما جعله يتحول كأننا ذا بنيان نفسي هش يستعيب عن العتل بقوانين الطيرة والغال وما يشبه عيافة الصير، رغم وجوده في عصر لم يزدهر فيه شيء قدر العلوم العقلية التي بلغ تأثيرها الي حد أن غلبت علي شعره وجعلته أشبه بالمناظرات.

ولا نتفق مع د. علي شلق من أن التكوين النفسي الخاص بابن الرومي كان عامل فشل علاقته مع المجتمع^(١)، إذا لا يصح في العقل أن يتكون الإنسان نفسيا وعقليا قبل أن يعرك الحياة ويضطرع مع البيئة فمن أين لابن الرومي مثل هذا التكوين؟ إننا نزع أن العكس هو الصحيح أي أن المجتمع بادر ابن الرومي بالعداوة مما شكل تكوينه النفس الذي زاد في هذه الغداوة وهكذا دارت الدائرة.

ومعني آخر من معاني الاغتراب نراه في شعر ابن الرومي- ونراه في شعر أبي تمام وأبي العلاء والمتنبي أيضا ولا نعتقد أن شاعرا مقتربا لم يستخلصه من الحياة- هذا المعني، هو اغتراب التفوق أو الثقة بإمكانات الذات، وما أسمته مدارس علم النفس بـ (لنواقص المعرفية) فالمغترب يستشعر رغم ضياعه وانسحاقه، وحرمانه مما يستحق أنه يعتلي قمة هؤلاء الناس الذين يمثلون وجها متشابها واحدا وصوتا واحدا مهما تباينوا في الظاهر، والذين لا يؤثرن كثيرا في الوجود إذا غابوا، هكذا ينظر ابن الرومي لنفسه فيراها يسهة ثقيلة الوزن وهي لتقلها تفرق أما من حولها فأنهم لهشاشتهم طافون فوق السطح إنه يصور ثقته بذاته، ويصور شكه في قدرة الحياة علي التمييز والتقدير والاتابة، القدرة علي التحكم وصياغة المنهج؟ يقول:

لا أعد العلوم منهم علوا	بل طغوا، يمين غير كذاب
جيف انتنت فاضحت علي	اللجة والدر تحنها في الحجاب
ورجال تقلبوا بزمان	أنانيه وفيهم ذو اغتراب ^(٢)

اغتراب ابن الرومي إذن- وكما وصفه في هذا البيت الأخير- اغتراب

(١) للديوان/ الجزء للثاني/ ص ٥٦٩.

(٢) الديوان/ الجزء الأول/ ص ٢٨٠.

في المجتمع وفي الزمان معا، أو اغتراب عنهما معا ولعل ما يجمع الاغترابين عنده، ما أسماه د. علي شلق بـ (قضية الفرات)^(١) أو الحرمان.

ويستهل ابن الرومي منحته في عيد الله بن طاهر، يستهلها ببكاء الشباب مستغرقا أحد عشر بيتا يحصي فيها آلام الشيب، محاولا الوصول إلي فلسفة للحياة، وقد ارتضى فلسفة العدم أو تقبل العدم تفسيرا للوجود، يقول:

فمالت صروف الدهر تتسخ جدتي وما أملت من قبل إلا لتسخر^(٢)

وفي منحته لصاعدين بن مخاد يصف الشيب بأنه رحيل إلى الموت أو طريق إليه^(٣)

ومن شأن من كان يمثل إقبال ابن الرومي علي الحياة- من شأنه بكاء الحياة والإحساس بفقدما، بل من المنطقي له أن يصف المشيب كما وصفه ابن الرومي بأنه كارثة الإنسان الأساسية في الحياة باعتباره باب النهاية^(٤).

وقد وثق ابن الرومي وثقة خاصة مميزة عند موت أوسط أبنائه، ورثاه رثاء مفجعا، وكأنه رأي في موت (أوسط الصبية) معني من معالي عبث الحياة، أو دليلا علي هذا العبث، فقد ابنا لم يك صغيرا مغمور الملامح ، كما لم يك كبيرا قد حقق حلم والديه فذاقوا من ثماره، كان الأوسط أو (الـ بين بين) وهي ذات المنطقة التي تعطلت فيها قوى ابن الرومي، وتصدت له الحياة بالاعاقة إذ أعطته حبها والرغبة فيها ثم أغدقت عليه من الحرمان، فلا هو مشبع، ولا هو عاطل من الرغبة، يقول ابن الرومي رثيا ولده مقتربا من هذا المعني:

توخي حمام الموت أوسط صبيتي

فله كيف أختار واسطة العقد

علي حين شمت الخير من لمحاته

وأنست من أفعاله آية الرشد^(٥)

ويبت ابن الرومي في ذات التصيدة إحساسه بامتزاج العدم والوجود في أثناء واحد، حيث يكرر قوله (كأنني ما) في كثير من الأبيات التي يصف فيها

(١) ابن الرومي في الصورة والوجود/ ص ١٠٢، ١٠٣.

(٢) الديوان/ الجزء الثاني/ ص ٥٧٤.

(٣) الديوان/ الجزء الثاني/ ص ٥٨٥.

(٤) الديوان/ الجزء الأول/ ص ٢١٧.

(٥) الديوان/ الجزء الثاني/ ص ٦٢٤.

تاريخه مع تلك الصبي، وكأنه يتشكك في حدوث الفتد، وكأنه يعاني اختلاط الماضي بالحاضر، أو كأنه يعاني الذهول من عجزه عن استعادة المانت، وهو يبحث هذا المعنى في قصيدة أخرى مما يؤكد شعوره بالعبث، يقول:

ولا تحسبن الرزء لم يك واقعا ولا تعتدنه طارفا فهو تالد^(١)

والعبث يجعل الوجود الإنساني بلا معنى في عين ابن الرومي، فهذا الوجود يمر عنده بدورة مضحكة غير مجدية: نمو، نضج، حصاد، ويتساءل في حلق عن مغزى هذه الدورة، ومدى إمكانية الحرية الإنسانية فيها:

أفلا سبيل إلي تبجينا قبي سرمد لا ينقضني أبده
سكبي شباب لا يعاقبه هرم وعيش دائم رغده
لا خير في عيش تخوننا أوقاتنا وتغولنا مدده
يعطي الفتى الأيام ينقها وقصاصها أن يقتري جلده
من أقرض الأوقات أتلفها وقضي جميع قروضها جسده
حتى يغيب في مطمطمة لا أهله فيها ولا ولده^(٢)

وفي رؤية ابن الرومي نحن ركب يحدونا الحداء إلي الموت^(٣) في حتمية تولم ابن الرومي وتسيطر علي رؤية كل شاعر مغترب مثله.

والموت أحد طرق الحفاظ على الحياة وأحد طرق العزلة والأمعان في الانفصال، هكذا يري ابن الرومي في محاولة لحل معضلة الوجود الإنساني المرهق، يري- أن انفصال الإنسان عن الحياة، وانفلاته من مقاعها يحميه من خطر الفقد والاستلاب والحزن:

من سره ألا يري ما يسوءه فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا^(٤)

أما الطريق الآخر لوقاية الإنسان، فهو اليأس المطلق من الحياة لأن التهديد بالفقد ينغص علي الإنسان طيب العيش^(٥)، قال يأس نجاه:

(١) الديوان/ الجزء الثاني/ ص ٨٠٠

(٢) الديوان/ الجزء الثاني/ ص ٦٦١

(٣) الديوان/ الجزء الأول/ ص ١١٩

(٤) الديوان/ الجزء الثاني/ ص ٨٠٠

(٥) الديوان/ الجزء الثاني/ ص ٦١٢

لكن في اليأس لي عفوا وعافية

واليأس رقد لعاف غير مرفود^(١)

والاغتراب عن الحياة هو العيش بوجودان سانت وبوجه سانت، هذا هو سلوك ابن الرومي في مقاومة اماته الحياة له، أن يالف الموت!!

ستألف فقدان الذي قد فقدته

كإفك وجدان الذي أنت واجد^(٢)

أنه ارتياح إلي العدم والخواء، ويقين من لا جدوى مقاومة الثابت في المجتمع وفي الوجود علي حد سواء، لكنه رغم هذه الحكمة التلجية لم يستطع أن يهدد انفعاله، أو أن يصل إلي ذلك الهدوء المزعوم، ولعل ميته في الجانب الشرقي من شارع "سوق العطش" - لعلها- رمز لملازمة العطش له، واقتران حياته- إلي مماته- بالحرمان:

أري ماء وبني عطش شديد

ولكن لا سبيل إلي للورود^(٣)

الاغتراب في شعر أبي تمام:

ولد أبو تمام- باتفاق كثير من الأراء- عام ١٩٠هـ، متوسطا قرنين غاية في الامتلاء، وعهدين من عهود الشعر، كان كل منهما تاريخا لزمانه ولاصحابه، أطلق مؤرخو الألب وبقاده القدامي علي هذين العهدين: عهد الطبع، وعهد الصنعة.

وكان عهد الصنعة الذي عاصره أبو تمام هو تلك المرحلة التي ازدهم فيها الشعر بالمضامين الفلسفية والمصطلحات العلمية، ونهل من زخرف كثير من الفنون التي وفدت علي المجتمع العربي، كما كان يعني - عهد الصنعة- تصرف الشاعر تصرفا واسعا في أساليبه وأدواته الشكلية بما يلجئه إلي اللسان من تلك الفلسفات والعلوم محتفيا بالزخرف والبريق وكل ما قد جعل بعض النقاد يهتمون الشعر وقتئذ بالتعمل والتصنع والاحتراف أو الخلو من التلقائية.

والحقيقة أنه في عصر أبي تمام لم يكن الشعر فقط هو الخاضع لمثل هذه العلوم والفلسفات الوافدة، كانت نفس العربي ذاتها خاضعة لهذا الوافد الذي

(١) الديوان/ الجزء للثاني/ ص ٦١٢

(٢) الديوان/ الجزء الأول/ ص ٨٠١

(٣) الديوان/ الجزء للثاني/ ص ٨٠٤

ألقى فيها الثبات والاعتقاد والموافقة، بل أخضع كثيرا من المسلمات للتساؤل، ونجحت العلوم العقلية في أن تصبغ فكر العربي بالحياة والرغبة في الكشف، ومعرفة أسرار وجوده وحياته ومماته، ولا يعني هذا أن الرجل العربي كان في غفلة عن هذا قبل هذا العصر بل نعني أن رواج تلك الفلسفات عن طريق تلك المناظرات العامة وكماكين الوراقين، بل وفي بيوت الغناء واللهو قننت هذه للتساؤلات وحددت ماهيتها، ووضعت العربي علي عنوان واضح لقضاياها واختماماته.

كان أبو تمام ابنا لهذا العصر الذي بدأ يطلب في الشعر الرؤية، بعد أن كان الشعر يطلب الجمال والتأثير الجمالي، وكان عقل أبي تمام قد نهل ولا شك من تلك البيئة الخصبة، وامتزج هذا العقل بتكوين الشعر المرهف، وامتزج أيضا بطبيعة حياته الخاصة وما بها من زوايا تزيد من حساسيته وقدرته علي التأمل...

استرعي شعر أبي تمام انتباه معاصريه- وانتباهنا الآن أيضا دارسين وباحثين لاحترافه بالمعني الفلسفي واعتماده علي المعاناة والكد واستكشاف القضايا، بما انعكس علي خصائص هذا الشعر، فبدأ شعر يجمع السماء والأرض معا من خلال " نوافر الأضداد" والمقابلات والصور المعقدة الجديدة أو النادرة القائمة علي استتكام دقيق عالي الحس لأدق جزئيات الحياة المادية، وجزئيات الحياة الداخلية للإنسان.. أبو تمام أنن لم يكن ينظر إلي الشعر بوصفه الهاما سريع المثلول والاستجابة بل كان ينظر إليه دائما بوصفه عالما يرتحل إليه، ويجتهد من أجله، ويستدعي بالإرهاق والعرق، نظر أبو تمام إلي الشعر بوصفه رؤية واستكشافا لا للمتلقي فقط، بل للشاعر ذاته الذي أن أخلص في البحث جني معرفة وبقينا بالتأمل وازداد إبراكا....

وأن تأمل شعر أبي تمام يضعنا علي محور يكاد يكون رئيسيا لهذا الشعر، ويكاد يكون هو الرؤية والكشف أو الإطار العام الفلسفي إذا جاز هذا التعبير- الذي خرج به أبو تمام من طول النظر إلي الحياة وطول التمرس بطباعها، هذه الرؤية هي أن " التغير والتجديد خلق جديد واغتراب" أو هي " الاغتراب النابض بالحياة"، والاغتراب المدفوع بالحياة " يقول أبو تمام:

أولا تري الأنبياء إن هي غيرت سمجت وحسن الأرض حين يغير (١)

الثبات موت، وحب التغيير دفاع ضد الموت، وطلب للنماء:

وطول بقاء المرء في الحي مخلق لديباجتيه ، فاغترب تتجدد
الم تر أن الشمس زبدت محبة إلي الناس أن ليست عليهم بسرمد (٢)

وهنا نري وجهها أو معني من معاني الاغتراب هو: الخلق والتفرد
والثروة، لذلك ربط بين الاغتراب والشمس: الحركة والحياة والنمو.

نظر أبو تمام إلي الإنسان من خلال هذه الرؤية الخاصة التي نظم
الحياة في سلكها، نظر إلي الإنسان فوجده أحق كانن بالتميز والوجود الكريم،
لذلك لم يحصر رؤيته للتغيير عند حد الارتجال الخارجي أي الارتحال المكاني،
بل رأي التغيير والاغتراب أيضا في الارتحال الداخلي النفسي حين يصير
الإنسان علي وجوده الأصيل ويرفض كل ما هو مشوه مبتور، وقد رفض أبو
تمام ما رآه في مجتمعه من العلاقات الميئة الزائفة، ورأي أصحابها مانئين ولو
كانوا أحياء، أما العلاقات الصحيحة فخالد أصحابها وإن طواهم النثرى (٣).

والعلاقات الزائفة تدفعه إلي مزيد من البحث عن الحياة، عن الصدق،
تدفعه إلي رحلة في باطنه وباطن الوجود رغبة في النمو:

فلم أجد الأخلاق إلا تخلقا ولم أجد الأفعال إلا تقضلا
وأصرف وجهي عن بلاد غداها لساني مشكولا وقلبي مقفلا (٤)

والارتحال لطلب التغيير ارتحال للمزيد من القوة، القوة في مواجهة
الزمن، وعوامل الافناء، فالإنسان في عين أبي تمام ليس جديرا بهذه التسمية أن

(١) ديوان أبي تمام. شرح الخطيب التبريزي تحقيق د. محمد عبده عزام دار المعارف
بمصر سلسلة ذخائر العرب/ ١٩٥٧م. نسخه من خمس مجلدات للمجلد الثاني / ص
١٩٤.

(٢) ديوان أبي تمام. شرح الخطيب التبريزي تحقيق د. محمد عبده عزام دار المعارف
بمصر سلسلة ذخائر العرب/ ١٩٥٧م. نسخه من خمس مجلدات للمجلد الثاني / ص
١٩٤.

(٣) الديوان / الجزء الثاني/ ص ٢٣.

(٤) الديوان / الجزء الأول/ ص ٤٠٦.

لم يقارم مصيره، ونكباته، وكل ما يزحف به إلي الظلام، يقول:

وغربت حتى لم أجد نكر مشرق
وشرقت حتى قد نسيت السغرابا
خطوب إذا لقيتهن رددني
جربحا كأي قد لقيت الكتائبا
ومن لم يسلم للنواب أصبحت
خلانقه طرا عليه نوابا^(١)

وكانه يري الألم مزيدا من النضج الإنساني، ومزيدا من الخلق والإحياء والمعرفة.

وفي سبيل المزيد من التجديد، المزيد من الاغتراب، والحيوية والمجد، لا يضمن أبو تمام علي هذه الحياة الخاصة براحلته، فهو غير قانع بواقعه، وبه عظيم الأمل في حياة جديدة يرتضيها لذلك أشرب راحلته هذا الهم، فبدت وكان هذا الهم يزجها في الصحراء^(٢) بينما يعتليها أبو تمام وقد بدا من شوقه إلي التفرّد والتواجد سقيما شاحبا^(٣). لقد توحّد بالراحلة لأنها وسيلته إلى الحياة .

إن الحياة في شعر أبي تمام ليست هي الوداعة والهدوء والدعة، بل هي المغامرة والاستكشاف والمجهول، هي الحركة الدائبة والناقة التي لا تريح ساقها:

فأطلب هدوءا بالتقلل واستنر
بالعيش من تحت السهاد هجودا^(٤)

هذا المنهج في الحياة أورث أبا تمام القلق والتمرد والحرمان، لأنه عشق الحياة بما لا يستطيع شئ أن يشبع هذا العشق، وطلب الكمال الإنساني، والقدرة العالية بما تقصر عنه طاقة الإنسان، لذا ظل أبو تمام غير قانع، بل لهج بالشكوى والحزن، علي الرغم من أنه لم يعان ما عاناه غيره من ضيق الرزق وامتناع الشهرة، فقد كان ميسور الحال، ذائع الصيت مشهودا له بالتفرّد والشاعرية، لكنه طلب " ليو توبيا" ولم يقنع بمثل هذه الحياة التي يوحى سطحها بالاكتمال كذبا وقد وصف معاناته وصفا دقيقا في هذا البيت حيث يقول:

(١) الديوان / الجزء الثالث/ ص ١٠٥، ١٠٦ .

(٢) الديوان/ للجزء الأول/ ص ١٤٧ .

(٣) الديوان / الجزء الثالث/ ص ٢٥ .

(٤) الديوان / للجزء الثالث/ ص ٢٢٧ .

ولو حاربت شول عزرت لقاحها لكي حرمت الدر والضرع حائل^(١)
وبهذا فهو يختلف عن بشار وابن الرومي، فاغترابه وليد امتلاء من
الحياة لا حرمان منها، لكنه أيضا وليد سعي إلي حياة غير الحياة، ومجد غير
المجد:

غربته العلي علي كثرة الناس فأضحى في الأقربين جنيبا^(٢)

بذات الرؤية نظر إلي الناس فصنفهم صنفين: قانع، وثائر، فالقانع
يعيش كما تريد الحياة له، ويستسيغ الضحالة إذ لن ترهقه يطلب الأعماق، أما
الثائر فهو يبحث عن حياة يعيشها هو كما يريد لا كما تريد، فهو يتألم من
الأسطح، وتحده الرغبة الدائمة في المعرفة والترقي والكمال، وقد هال أبا تمام
أن رأي مجتمعه لا يستطيع التفارقة بين هذين الصنفين من الناس، بل هو أحيانا
ياخذ ثمار الثائر إلي القانع الراكد عن جهل وعجز، يعطي القابع مجهود
المكثور:

وجد بها قوم سواي فصادفوا بها الصبح أعشي والزمان مغفلا
كلاب أغارت في فريسة ضيغم طروقها وهام أطعمت صيد أجدا
فليس الذي قاسي المطالب غدوة هبيدا، كمن قاسي المطالب حنظلا^(٣)

وهو يكرر ذات المعنى في سياقات المديح^(٤)، تتعدد معاني أبي تمام،
وتتعمق رؤيته حين يرى أن الارتحال الذي هو طلب الكمال - يراه - شبيها
بالموت! وكأنه يرى الكمال فناء، فهل بدت الحياة الإنسانية لأبي تمام متعذرة
علي المثال والتناسق.. أو أن تناسقها لا يكتمل إلا بالموت؟ هو يصف الرحلة
بقوله:

هي منية إلا سلامة أهلها من خلتين، من الثري والماتم^(٥)

(١) الديوان / الجزء الأول / ص ٤١٦ .

(٢) الديوان / الجزء الثالث / ص ١٢٩ .

(٣) الديوان / الجزء الأول / ص ١٦٩ .

(٤) الديوان / الجزء الثالث / ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٥) الديوان / الجزء الثالث / ص ١١٧ .

إن أبا تمام يري التفرد والسعي وراء الوجود الخاص، اغترابا شبيها
باغتراب المائت ، فالهجر بين الأحبة عنده رحيل يفضي إلي الموت^(١) أو هو
أحد طرائق الموت.

وإن رغبة أبي تمام في الحياة تعكس إحساسه الحاد بالزمن، هذا
الإحساس يدفعه إلي مقاومة التقولب والركود لأنهما موت، يدفعه إلي طلب
التغير والتعرض الدائم للشمس نفيا للعفن ونفيا لقوي الزمان، لكنه يدرك أن هذا
السعي والارتحال والتغير قتل للزمان، والتهام للوقت، هل أدرك شاعرنا مدى
فسوة هذه الإشكالية الميتافيزيقية . أن أبا تمام حين يقول:

وليل بت أكلوه كاتي سليم، أو سهرت علي سليم^(٢)

فإنه يطبع أمامنا إحساسه بالوقت، لأنه يبدو مراقبا لذاته داخل الزمن،
ومراقبا للزمن داخل ذاته في أن واحد، وفي هذه المراقبة تسيطر عليه مشاعر
الرهبة والخوف والمعاناة للقوي الخارجية التي تواجه الإنسان لأنها ليست قوي
متكافئة معه، وإذا كان أبو تمام يستدعي كل قواه قبالة الركود الاجتماعي
والاضطراب في جنبات الواقع صانحا يطلب التغير والرحلة والسعي
المتواصل، فإنه يكاد يخور قبالة هذه التحديات غير الإنسانية، فيقف متأملا شبيها
ليراه مزيدا من النضج- شعلة- هذه الشعلة التي قد تكون المعرفة والخبرة التي
نالت منه أولا وألمته فيقارن بين تلك السذاجة الوادعة أو ذلك الجهل الذي كان
يرعاه صغيرا وما كان فيه من سعادة معه وبين المعرفة القاتلة ليخلص إلي أن
السعي الإنساني إلي المعرفة سعي إلي مزيد من التمزق والألم والقلق، ووداع
لكل صفاء ووداعة وهدوء:

شعلة في المفارق استودعتني في صميم الفزاد ثكلا صميما
غرة بهمة ، إلا إنما كنت أغر أيام كنت بهيما
دقة في الحياة تدعي جلالا مثلما سمي اللديغ سليما^(٣)

أن صراع الإنسان ليست منه جدوى قبالة الأمور الحدية: الزمان
والموت ، هكذا يقول الشاعر :

(١) الديوان / الجزء الثالث/ ص ٢٥٠ .
(٢) الديوان / الجزء الأول/ ص ١٦٦
(٣) الديوان / الجزء الثالث/ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤

كل داء يرجي الدواء له إلا "م" النضيعين. ميثمة ومشيبا^(١).

أن المعنى الذي أمسك به أبو تمام بعد طول تأمل في الحياة هو أن السعي الدائب إلي الحياة سعي مخلص إلي الموت، هكذا وجد نفسه بنزوعه إلي التجديد والارتحال يقترب من الموت أسرع من شيره، ولعل صراعه بين هذه المتناقضات كان لب توجهه إلي "نوافر الاضداد" في شعره، أو كان هو مبعث هذه النوافر التي هي انعكاس للتوتر النفسي والصراع الفكري معا: كذلك فإن هذه المعاني كانت مما استقر في نفس أبي تمام من احتكاكه العقلي "بالكندي الفيلسوف الذي كان يرى أن ما كتب علينا من ألم وموت هو من مقومات إنسانيتنا، فلو لم يكن موت لم يكن إنسان، ولقد كان من الذين يؤكدون أن حد الإنسان أنه "الحي الناطق المانت"^(٢).

كذلك كان صراع أبي تمام مع المرض في فترة مبكرة من السن من عوامل حساسيته المرهفة تجاه قضايا الموت والحياة، كما عاني الموت قريبا منه حين تكل أولاده وأخوته وبعض اعزائه، أي رأي الموت أقرب مما كان يتصور فامتلا ذعرا منه وتصميما علي المقاومة والهرب" ولقد تنبه البحترى إلي قضية الموت في شعر أبي تمام، وكان أن قال كلمته المشهورة فيه وهي " أنه مداحة . نواحة" وفي الحقيقة لقد أكثر أبو تمام من النواح علي نفسه وأهل بيته والصفوة من رجال عصره"^(٣).

ونرى الموت رغم ذلك يتسمي باسم الوطن في شعر أبي تمام:

حنّ إلي الموت، حتى ظن جاهله بأنه حنّ مشتاقا إلي وطن^(٤)

فهل يحدد لنا أبو تمام بهذا الحنين جهة انتمائه، وازواجية تأملاته؟ هذا الحنين قد يكون للأعزاء الذين ارتحلوا إليه وقد يكون تسليما بمنطق الوجود الذي يرى حتمية أن يردف الموت الحياة فالشاعر هنا يحاول ألا يقاوم المحال بل يحاول الانتلاف معه والتسليم به، يقول أبو تمام :

(١) د. عبده بدوي. أبو تمام وقضية التجديد في الشعر. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥

(٢) المرجع السابق / ص ٦٢.

(٣) الديوان / الجزء الثالث/ ص ٣٠٠.

(٤) الديوان / الجزء الثالث/ ص ٢٢٥.

سأكلنا الدهر الذي غال من نري ولا تنعصي الأشياء أو يأكل الدهر
وأكثر حالات ابن أم خليفة يضُرُّ إذا فكرت في كنهها الفكر^(١)

أنها الرغبة الملحة في القوة ، القوة التي قد تصلح أن تكون الرفض
والتمرد فيما يخص أمور الحياة ، ولكنها لا تصلح إلا أن تكون القبول فيما
يخص الموت ، وبذلك يؤكد أبو تمام أنه يرتحل مادياً ومعنوياً ، داخل الزمان
وخارج المكان سعياً وراء حلم واحد : الإنسان المكتمل الذي قد يزيدته تقبل
وضعه الميثاقيزيقي نبلا وقوة وبسالة :

متى ترع هذا الموت عين بصيرة تجد عادلا منه شبيها بظالم^(٢)

الاختراب في شعر أبي الطيب المتنبّي :

أبو الطيب المتنبّي نفس مغامرة تعشق السيادة والجاه والرغد وهذا
العشق هو قضيتها الحقيقية الوحيدة مع الحياة ، وهو أيضاً مبعث شقائها
وغضبها وتمردا ، تماما كما وصف هو نفسه في هذا البيت القائل :

أتعب خلق الله من زاد همه وقصر عما تشتهي النفس وجده^(٣)

وقد بدت مخايل هذه القضية في سن مبكرة من حياة المتنبّي " قال في
صباه ، وقد قيل : ما أحسن شعرك :

لا تحسبن الوفرة حتى ترى علي قنسى معتقل صعدة
منشورة الضفرين يوم القتال
يعلها من كل وافي للسيال^(٤)

إن وصف المتنبّي لهذين البيتين بأنهما من لثضل شعره ، في هذه السن
وصف يدل علي ما كان بهمه من قضايا ، أو ما حدده من هدف لحياته اعتقد أن بيئته
هذين قد عبرا عنه بدقة .

(١) الديوان / الجزء الثالث / ص ٢٤

(٢) الديوان / الجزء الثالث / ص ٢٥٧ .

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبّي / شرح أبي البقاء العكبري مطبعة مصطفى البابي الحلبي
١٩٣٦ م نسخة في أربع أجزاء الجزء الثاني / ص ٢٢

(٤) الديوان . الجزء الثاني ص ١٥٩

وقد وقفت بعض السوانع في وجه طموح المتنبّي ، وعانى منذ صغره الإحساس المهين بضعة مكانته الاجتماعية ، وما يحيط بنسبة من شبهات ، وما يبرز تحته من فقر ، وكان " في بلدته الكوفة دائم البترم بأحزانه وأحقاده وفقره ، وكان دائم الثورة علي تلك الأوضاع ، كثير العجب من هذه الحياة ، وما يرى ويسمع ، وإلي جانب هذا عظيم التقدير لعلمه وذكائه :

لم الليلي التي أخذت علي جبتي برقة الحالة ، وأعزرتني ولا تلم
أرى أناسا ومحصولي علي غم وذكر جود ومحصولي علي الكلم

أن هذا الشعور بالحاجة والظلم أوصل المتنبّي إلي ما وصل إليه (١)

أن كل ألام المتنبّي تتولد من يقينه بأنه دائما أكبر مما يعطي ، و أعلى قدرا مما يملك ، وأنه لم يصل بعد إلي بغيته وإلي ما يستحقه من هنا امتلا ديوانه بنعمة تعظيم الذات وإكبارها أمام الذوات الأخرى ، أو الأغيار ، حتى لو كان الدهر نفسه (٢) ومن هنا أيضا امتلأت أبياته بروح التحدي والاستفزاز والرغبة في التحطيم والامتلاك، فقد كانت نفس المتنبّي تختلف عن نفس بشار بن برد ، وأبي نواس ، وأبن الرومي ، وأيضا تختلف عن نفس أبي العلاء المعري - كما سنرى - وإن كانت تشابه نفس أبي تمام إلي حد ما ، فلم يكن يرى الهزيمة نهاية المطاف ، ولم تكن العزلة في مفهومه تعني الصمت والاستسلام واليأس - لم تكن - إحدى الحلول المقترحة لقضاياه ، بل كان سبيله الوحيد إلي الحياة ، الالتحام والسعي الدائب بكل وسيلة وراء الاستحواذ ، يقول :

ليس التعل بالأمال من أربي ولا القناعة بالإقلال من شيمي
وما أظن بنات الدهر تتركني حتى تسد عليها طرقها هممي (٣)

ولم يفلح الواقع المحيط به أن يتدنى بطموحه إلي ما هو أقل من النجوم ، ولم يفلح في إناخة راحلته ، بل كان علي طول ديوانه - يصعد بها إلي أفاق النسر ، ولم يفلح الزمان في إخافتة ، بل أعلن في شعره أنه سيطاعن خيل الزمان

(١) نور الدين يوسف نور الدين / للشعراء الثلاثة / دار الأنصاف ولم تذكر سنة النشر / ص ١٨ ، ١٩ .

(٢) للديوان / الجزء الثاني / ص ٨١ .

(٣) للديوان / الجزء الرابع / ص ٣٩ .

ذاته^(١) وسيصدي للدهر بالعتاب ، وبالوعيد أن إن لم يجد العتاب.^(٢)

إن طموح المتنبّي جعله لا يولي انتماءه إلا لمن يبدو قادرا علي تحقيق هذا الطموح وترجمته إلي واقع ، ومن ثم فهو لا يعرض إلا عن يقصر عن تلبية نداء هذا الطموح ، فالمتنبّي لم يكن ذا روح جمعية تألف الناس ، وتفتدي من وجودهم الروحي ، بل كان يرى الصلة إنسانية مكسبا وإفادة عاجلة أو آجلة ، وكان علي استعداد من أجل هذه الصلات المفيدة أن ينبذ كل صلة له بالانتماء الحقيقي المتولد من اللولاء والحب والحياة المشتركة ،

والاغتراب عن المكان والاغتراب عن الأهل قربان رخيص يدفعه عن طيب خاطر إذا ما بدت له مخايل المجد في أرض أخرى ، يقول المتنبّي:

إذا ترك الإنسان أهلا وراءه ويمم كافورا فما يتقرب^(٣)

ويمتلي ديوانه بهذه المعاني التي يحدد لنا فيها بوضوح كامل طبيعة انتمائه وتوجهه في الحياة ، ويحدد أيضا قضيته يقول :

غنى من الأوطان لا يستقرني إلي بلد سافرتُ منه إياب^(٤)

ولا نجد في ديوان أبي الطيب تلك الأكم المتولد من الانفصال عن المجتمع ، أو ذلك الحنين إلي الأنفاس البشرية ، فهو رجل ذو مشاعر صلدة لا يبهجه إلا ما يغذي مطامعه ويحققها ، لذلك فالزمان والمكان والإنسان جميعا ليسوا إلا أدوات هذه المطامع :

كلُّ امرئ يُولي الجميلَ محببٌ وكلُّ مكان ينبتُ العزَّ طيب^(٥)

وليس الزمان والمكان والإنسان فقط أدوات تحقيق أحلامه ، بل إن نفسه ذاتها أداة رخيصة في سبيل هذا الحلم ، إذ لا نعتقد أن المتنبّي كان يستشعر المعني الحقيقي لإكبار الذات وإعزازها ، فهو لم يرضن بها علي أي ممدوح مهما تظامن قدره ، وقد أراقها علي باب كافور رغم عدم قناعته بأنه أدل للملك والسيادة ، لكنه وصل ذاته بذات الممدوحين ، وعلق حركتها الداخلية بهم ، فهم

(١) للديوان / الجزء الأول / ص ٤٣

(٢) للديوان / الجزء الثاني / ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٣) للديوان / الجزء الأول / ص ١٨١

(٤) المصدر السابق للجزء الثاني ص ١٥٩ .

(٥) السابق / ص ١٨٣ للجزء الأول .

وحدهم كفيلون بتقل أجزائه وهمومه^(١) إذ هم وخدمهم الإنماء .

لذلك لا نعتقد أيضا أن المنتبى كان من الشعراء الذين يغالون في المديح بحثا عن المثال في الممدوح ، أو سعيا وراء (يوتوبيا) ما ، فالمنتبى رجل كان لا ينظر إلا إلى الواقع ، وكان يستطيع التخطيط له بمهارة وحنكة ولم ، يكن ليلق بتجاربه أن يكون جاهلا بمن يمدحه ، ولعل موقفه مع كافور الإخشيدى في مصر أن يكون دليل نفي لسعيه وراء المثال ، فكافور الذي مدحه منذ قليل بأنه ليث والملوك ذناب^(٢) وغير ذلك من الصفات العالية - ، عاد فنعته باسم الكلب صراحة في^(٣) هجاء مقذع بعد أن أعرض عن أمانيه وبدا له تخاذه عنها ، وأن ما يقال عن اعتداد المنتبى بنفسه أمام سيف الدولة الحمداني وفاتك الشجاع وكيف أنه كان الشاعر الوحيد الذي ينشد الشعر جالسا بالقرب من سيف الدولة إن ما يقال من هذا كله لم يكن اعتدادا صحيا بالذات - اعتدادا واعيا متزنا ، بل كان استغلالا نكيا لطبيعة المكان والإنسان الذين يواجههما ، فقد كان سيف الدولة بحاجة إلي قلمه ، مثلما كان هو في حاجة إلي مجد سيف الدولة واسمه وحرابه ، أما فاتك الشجاع وغيره ، فقد كان المنتبى قد وصل إلي صيت شعري من ملازمته لسيف الدولة يمكنه من املاء شروط تشيع عنده الحاجة إلي الابهار والدوي ، وإغاضة الاعداء وابداء الثقة بالذات ، ليواجه بكل هذا ما ترسب في نفسه من نقائص ومعاناة لظروف نشأته .

وكما حدد طموح المنتبى له ماهية الأهل والوطن والأرض وطبيعة القضايا التي تهم الذات ، كان هذا الطموح الذي لاقى كثيرا من العثرات والإعاقة عن الوجود الكامل - كان العامل الرئيسي لاتفصال المنتبى عن مجتمعه ، وإحساسه بالاغتراب فيه وملازمته لشعور قوى طوال حياته هو أنه لم يوجد حيث يريد :

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني إن النفيس غريب حيثما كانا^(٤)

وسقط المنتبى إحساسه بالإحباط والفشل علي قطاعات المجتمع كلها ويشكو خلو المجتمع من الصدق والوفاء والخلل الكريمة ، فينكر إمكانية وجود

(١) الديوان / للجزء الثالث / ص ١٧١ .

(٢) الديوان / للجزء الأول / ص ١٨٢ .

(٣) الديوان . للجزء الأول . ص ١٩٧ .

(٤) الديوان . للجزء الأول . ص ١٧٩ .

الصديق^(١) ويدعو إلى العزلة والرحيل عن المجتمع ، الذي لا يسر وفق منطق
وهدي ، وكيف وملوكه أرانب^(٢) والمنعمون فيه لا يستحون هذا النعيم ،
ويصف حياته في هذا المجتمع بأنه يعيش عيشة صالح في ثمود ، ويتمثل مقام
المسيح بين اليهود^(٣) .

ونعتقد أيضا أنه في المغالاة أن نلبس المتنبّي الاهتمام بقضايا المجتمع
وقضايا العروبة والانشغال بصالح الجنس العربي ، من المغالاة في اعتقادنا -
أن نحمله عبئا هو برئ منه ، وإن نفسر هجائياته تبعا لهذه المغالاة ، إلا أن
نتصور أن حدثه في تشريح المجتمع نابعة من شغل بهوموم الخارج ، فالهم
الوحيد الذي يسيطر عليه هو طموحه الشخصي ، ورغبته في السيادة والحكم ،
ونعتقد أن هذه الرغبة ، كانت وراء حادث تألييه للأعراب ضد الحاكم في
الكوفة ، وما ترتب عليها من سجنه في سن صغيرة ، فهذا الحادث يؤكد سعيه
وراء مطمع شخصي ، إذ لو كان سعيا وراء أيديولوجية أو هدف قومي ، ما
كان المتنبّي يخرج من السجن مستغفرا مقسما علي أنه موثى به ، وعلي أنه لن
يعود لمثل هذا ، ثم أين كانت أحاسيس المتنبّي بسينات الوضع في حكم البلاد
الإسلامية حين مدح الأخشيدي ، لقد بدت له سينات الوضع السياسي في مصر
فقط عندما أحبط أمله الشخصي ، لذلك كله لا نعتقد أن اغتراب المتنبّي كان
نابعا من انشغاله بقضايا مجتمعه وقضاياه معا ، بل كان نابعا من انشغاله
بقضاياه هو فقط ، وعلى الألق من صراعه بين ما يريد وما يحقق ، وقد صور
هذه القضية تصويرا دقيقا في قصيدته التي قالها عند خروجه من مصر هاربا
محبطا :

أمسيت أروح مثر خازنا ويدا أنا للغني وأموالي المواعيد
إني نزلت بكذا أبين ضيفهم عن القرى ، وعن الترحال مرود^(٤)

هكذا كان شعوره في كل أرض ترده جانع الأحلام .

ومن المتناقض في شعر المتنبّي أن نراه يبكي حاجته إلي الصديق وإلي

(١) النديون . الجزء الرابع . ص ٢١٢ .

(٢) النديون الجزء الرابع . ص ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ .

(٣) مجاهد عبد المنعم مجاهد . المتنبّي والاعتراب . مكتبة الأنجلو المصرية / ١٩٧٨م /

ص ٥٩ .

(٤) النديون الجزء الثاني ص ٤١ .

المجتمع الإنساني السوي ، بينما لم يسع لذلك ، يقول :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا
تمنيتها لما تمنيت أن ترى صديقا فاعيا أو عدوا مداجيا^(١)

إن شعر المتنبي " هو رؤيته الذاتية ، وهو حوار مستمر بين الطموح الذي لا يعرف غاية ، والواقع الواهن الذي لا يقدر أن يساير هذا الطموح"^(٢).

ومن هنا كان انطلاق المتنبي أيضا إلي القضايا الميتافيزيقية المختلفة التي أرقق بها وقد ساهمت نشأته الأولى في صبغة بنضج المعاناة والتأمل ، وقد لاحظ ابن رشيقي أن شعر المتنبي يدور في معظمه حول شكوى الدهر ، ونم الزمان ، وهي ملاحظة دقيقة واضحة لمن يتأمل هذا الشعر .

الزمان في عين المتنبي هو منغص العيش^(٣) وهو القوة التي تعطل وجوده في الحياة ، أما الحياة ذاتها فقد وصفها وصفا أورثه أبا العلاء المعري بعد ذلك يقول :

فذى الدار أخون من مومس وأخذع من كفة الحابل
تفاني الرجال علي حبها وما يحصلون علي طائل^(٤)

والدهر في عين المتنبي مطار د لحوح لا يكمل من وضع العثرات أمام طريقته :

أهم بشيء والليالي كأنها تطاردني عن كونه وأطار^(٥)

والموت هو نهاية الطموح في شعره ، هو الحد من السعي ، لذلك فهو يسخر من إعدادنا للسوابق والرماح ، إذ لا يجدي هذا الإعداد معه^(٦) .

ونظرا لأن رؤية المتنبي للموت رؤية تابعة من الخوف علي طموحه الشخصي وتابعة من مقاومته لكل ما يعطل هذا الطموح ، نرى كثيرا من قصائد الرثاء في

(١) الديوان . الجزء الرابع . ص ٢٨١ .

(٢) د . محمد زكي العثماني . موقف الشعر من الفكر والفن في الحياة العباسية ص ٢٣٩ .

(٣) الديوان . الجزء الرابع . ص ٢٣٩ .

(٤) الديوان الجزء الثالث . ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٥) الديوان . الجزء الأول . ص ١٨١ .

(٦) الديوان الجزء الثالث . ص ٨ .

شعر المتنبي تكاد تحلو من الاتفعال الصائغ الحيقى بالموت ، كقصيدته في رثاء محمد ابن اسحق التوحى^(١) ورثاء والده سيف الدولة^(٢) وأخت سيف الدولة الصغرى إذا تغلب على هذه انقصاند المعانى التثديية للرتاء ، ويبدو فيها الشاعر منفصلا عن الموقف راثيا من الخارج دون أن يمسه الموت ، ولعل المتنبي يضيف عاملا آخر لهذه الظاهرة في رثائياته ، حين يقول :

وما استغربت عيني فراق رأيتَه ولا علمتني غير ما القلب عالمه
فلا يهتمني الكاشحون فأنني رعيت الردى حتى حلت لي علامته^(٣)

وكان معاناته وطول لهائه وراء أماله أورثاه شيئا من الصلادة والتجهم العاطفي ، ومنحاه كثيرا من التماسك أو القسوة ، لكن الموقف من الموت يتغير ، حين يمسه الموت الذات ويهددها بالتعطيل ، حتى يقف المتنبي أمام المشيب - نذير الموت - قبل أن يمسه فردية^(٤) ناعيا شبابه قبل أن يرحل عنه ، ويصف الموت بأنه سارق^(٥) سالب لإشراق الوجود الإنساني .

ويبدو أنه من المحتم على كل شاعر تتعقد ظروف حياته ، وتتشابك . . . من هذه الظروف مع معاناته من المحيط الخارجي يبدو أنه من المحتم عليه أن يكون منقسم النفس قبالة الموت ، مشتت الرؤى ، فالموت يلبس عنده ثياب الشيطان وفي ذات الوقت يرتدي بهاء الملائكة ، لأن معاناته في الحياة تدفعه لأن يرى الموت تارة خلاصا ، وتارة موقفا حديا يقيد الوجود ، ولعل هذه المعاناة هي التي دفعته لأن يشكو السأم من طول بقائه في الحياة ، بينما لم يكن قد تعدى العشرين من عمره^(٦) ولعلها أيضا هي المودية به إلى الإحساس باستواء كل الأشياء ، وتقدان الرغبة فيها معا ، أي الإحساس باليأس واللاجدوى :

ألا لا أرى الأحداث حمدا ولانما فما بطشها جهلا ولا كنها حلما
إلى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى يعود كما أبدى ويكري كما أرمي^(٧)

(١) الديوان الجزء الثاني ص ١٢٨

(٢) الديوان الجزء الثالث ص ١١

(٣) الديوان الجزء الأول ص ٣٢٢

(٤) الديوان الجزء الثاني ص ٣٣٦

(٥) الديوان الجزء الثالث ص ٤٨

(٦) الديوان الجزء الأول ص ١٠

جمجمة المات وحقيقته الإنسان البشعة ، وكثيرا ما تنتهي رؤاه إلى العدمية .
وحيث يتأمل للقاتلة المصنغرة في طي الصحراء ، يخلع عليها رداء
إنسانيا ، فيراها هي للمجتمع البشري بأسره راحلا إلى الموت ، وكأنه حين
يودع الحبيبة المعتلية لهذا الركب يودع الحياة بسرهما في معالجة رمزية ،
يقول:

ليس القباب علي الركاب وإنما هن الحياة ترحلت بسلام^(٢)

أن العزلة المضروبة حول المتبني والتي فرضها عليه طموحه عزلة
جعلته يرى الحياة كلها مقام غرباء ، وكأنه يلبس اغترابه كل الوجود :

بدار كل سكانها غريب طويل الهجر منبت الحبال^(٣)

وحيث يقول المتبني :

ومن يك ذا فم مر ، مريض يجد مرابه الماء الزلالا^(٤)

حين يردد المتبني هذا المعنى ، فإنه يكون قد طماننا إلى أن انشغاله
بقضيته الذاتية ، وإحساسه بفشله الشخصي كان مصدر انفصاله عن الواقع
ورفضه له ، وكان مصدر عدائه لما عادي ، وتقربه ممن تقرب ، كما يكون قد
لغتنا أيضا إلى أن هذا الفشل الشخصي هو مصدر معاناته للقضايا الميتافيزيقية
، وإنشغاله بموقف الإنسان من الحياة والموت ، أن المتبني بتريده لهذا المعنى
قد وضع أيدينا علي منبع قضاياها وماهية اهتماماته وملامح اغترابه .

أن بشار بن برد وأبا نواس ، وابن الرومي ، وأبا تمام ، وأبا الطيب
المتبني شعراء عانوا الاغتراب ، وعابثوا مشاعره ، وقد اختلف مصدر
اغتراب كل منهم عن الآخر ، فكانت قضية الصدق وصراع أبي نواس مع
المجتمع من أجلها ، مصدر اغترابه ، وكان طموح المتبني وارتطامه بالمجتمع
وقيوده من جهة ، وظروف حياته الخاصة مما جعله يرفض الواقع ويتمرد عليه
، أما شره ابن الرومي للحياة فكان شرها لا يعمله إلا الحرمان من هذه الحياة ،

(١) النديان الجزء الأول ص ٢١٢

(٢) النديان الجزء الرابع ص ٨

(٣) النديان الجزء الثالث ص ١٥

(٤) النديان الجزء الثالث ص ٢٢٨

ومن ثم امتلاً بالانقمة علي الوجود كله . ولعل عوامل اغتراب أبي تمام أن تكون متميزة حيث اندفع إلي الاغتراب لحلمه اللوح أن يصل بالإنسان إلي قمة النعال بالدعوة المتواصلة إلي التجديد والتغيير والنمو الخالق ، بالحركة والسعي والفعل النبيل ، ولا بد لمثل هذا الحلم أن يصطدم بما يتضمنه الواقع من تشوهات ، أو حقائق لا تصل إلي رقي الأحلام ونصاعتها . ولعل حقيقة الموت أن تكون المناوى الأفخم لمثل هذا الحلم الراقى في حياة أبي تمام .

وإذا كان الشعراء المغتربون في العصر العباسي - في هذه الصفحات - قد وقعوا في شرك الاغتراب للسفارقة بين الحلم والواقع أو الامكان والمشتهي ، فهم يشتركون في صفة أخرى أيضاً ، أو في زاوية أخرى من زوايا الاغتراب ، وهي الزاوية الخاصة بالابداع ، فهؤلاء الشعراء ، قد أحدث كل منهم في عصره وقفه فنية أو دهشة فنية وأثار جدلاً بطرائقه الشعرية الجديدة ، بل نستطيع أن نقول أن كل شاعر منهم قد أحدث ما يشبه الخصومة الفنية في عصره حيث انقسم هذا العصر بين مؤيد لشعره ورافض له ، علي مستوى المضمون والصياغة . ولا يزال الجدل قائماً حولهم إلي الآن ، وما زال شعرهم يثير القضايا لثرائه وجنته وخصوصيته حتى لقد عد منحي في عصره ، وأرخ به للشعر ، وكان اغتراب الشاعر قد وجد ما يعادله في الشعر وهذا منطقي - وكان الشاعر وشعره كيانه واحداً يعكس كل منهما ما يبدو علي صفحة الآخر من قلق وتغيير وكان اغتراب الشاعر له وجه إيجابي هو صورة هذا الاغتراب في الشعر ، وامتلاء هذا الشعر بحيوية وطاقة ونسيج ولم جديدين مدهشين علي طول الزمان وكان الشعر يعوض صاحبه عما لاقاه كإنسان وشاعر من معاناته للأغتراب .

وفي الصفحات التالية نقف عند اغتراب أبي العلاء المعري لعلنا نلمس خصوصية هذا الاغتراب وطبيعته وعوامله ونتائجها ، وما انفرد به في كل هذا عن الشعراء المغتربين في هذا العصر .